ڤولتير
محطم الخرافات

يهفو الذهن إلى ذكرى ڤولتير كلما هبت على الأمة عواصف الظلام التى تقيد الحرية وتسوغ الاعتقال وتمنع الكتب وتراقب الصحف وتضع الحدود والسدود للعقول، وتنتهك النفوس البشرية بأفظع مما ينتهك الفاسق الأجسام البشرية .

ذلك لأن ڤولتير عاش من أجل الحرية . وكانت إيماءة حياته احترام الإنسان وكرامة الناس وحريتهم . ومن الحسن أن نقرأ تاريخه، ومن الأحسن أن يقرأه أولئك الذين حملوا النيابة العامة فى مصر على أن تقوم بأكثر من أربعمائة تحقيق مع الصحف فى أقل من سنتين بين سنة ١٩٤٤ و ١٩٤٦ ، ثم بعد ذلك منعوا بعض الكتب الأوربية من الدخول إلى مصر، كما منعوا بعض المؤلفين من طبع مؤلفاتهم ونشرها.

ولد ڤولتير فى عام ١٦٩٤ ومات فى عام ١٧٧٨ . وتغير تاريخ أوربا بحياته ، إذ نقل هذه القارة من التعصب إلى التسامح ومن التقييد إلى التحرير . وغرس بذلك شجرة الديمقراطية ، وحمل على العقائد والخرافات الضارة فحطمها ، كما بسط الآفاق لحكم العقول ، فظهرت الحكومات المدنية العصرية .

وقد كان ڤولتير يمثل الطبقة الجديدة البازغة ، طبقة الصناعيين والتجاريين الذين شرعوا يأخذون مكان النبلاء فى المجتمع الأوربى ، ومن هنا كان إحساسه بضرورة الحرية واحترام الكرامة البشرية عميقاً ، لأن النبلاء الإقطاعيين كانوا يستعبدون الفلاحين . وعاش ڤولتير طوال عمره وفى نفسه حزازة ، فإن أحد النبلاء استطاع أن يحبسه فى سجن الباستيل وأن يراه وهو يجلد انتقاماً منه لبضعة أبيات من الشعر ألفها عنه ڤولتير . وقد خرج من السجن وهو يبغض النبلاء ويدعو إلى إلغاء النظام الإقطاعى . وسافر إلى إنجلترا وبقى بها أربع سنوات ، فأعجب بشيئين هما الدستور الإنجليزى الذى ينص على أن الحكم للشعب ، وأيضاً العالم الرياضى نيوتن . ولما عاد إلى فرنسا دعا إلى الأخذ بقواعد الدستور الإنجليزى فى الحكم . ولو أن الحاكمين تنبهوا فى ذلك الوقت إلى قيمة هذه الدعوة لعملوا بها . وعندئذ كانوا يتفادون بلا شك من جموح الثورة الفرنسية الكبرى .

وأسوأ ما تصاب به أمة أن يتحد الدين مع الاستبداد ، وأن يتحالف الطغاة مع الكهنة ، بحيث يستند الدين إلى قوة البوليس ، ويستند الاستبداد إلى أساطير الدين . وهذا ما فشا فى فرنسا فى القرن الثامن عشر . فقد صدر قانون فى عام ١٧٥٧ بإعدام المؤلفين الذين يهاجمون الدين . وصحيح أن هذا القانون لم ينفذ ، لأن الذين وضعوه أحسوا بالأخطار التى يستهدفون لها إذا جرءوا على تنفيذه ، ولكن حركة التأليف وقفت أو كادت

بسبب هذا القانون . واستمر إحراق الكتب إلى عام ١٧٨٨ أى قبل الثورة بعام واحد .

ولكن ڤولتير استطاع أن يخرج العشرات من الرسائل الحرة بأسماء مستعارة ، أى مزورة ، كى ينجو من خطر الإعدام . وكان فى هذه الرسائل يحطم الأساطير ويحمل على الطغيان الحكومى والكنسى ، وقبل كل شىء يدعو إلى التسامح ، وأن الناس إخوة ولو كانوا مؤمنين أو ملحدين ، مسيحيين أو مسلمين يهوداً ، أو بوذيين .

ولقى ڤولتير عنتا فى دعوته إلى الحرية ، وخاصة حرية العقيدة ، لأن الكنيسة الكاثوليكية كانت تحالف فى أيامه الحكومة الفرنسية ، وكانت تحمل الحكومة والشعب معاً على التعصب وإيذاء غير الكاثوليك . . وقد كتب ڤولتير بقلمه وأنفق من ماله كى ينقذ العلاثلات التى وقع بها الاضطهاد الدينى وكى يدعو إلى التسامح وحرية العقيدة .

واحتال كى يعيش وكى يرصد حياته للكفاح فى سبيل الحرية .

وكان من احتياله أن اشترى أرضاً فى سويسرا وأرضاً أخرى فى فرنسا . وكانتا تتجاوران . وذلك ترقباً للاضطهاد من إحدى الحكومتين السويسرية أو الفرنسية بحيث يستطيع الفرار إلى فرنسا إذا وجد الحملة عليه من الأولى ، أو إلى سويسرا إذا وجد الحملة عليه من الثانية .

وعاش على هذه الحال السنين الطويلة كى يؤدى رسالته ، وهى صيانة الحرية من الوحوش الآدميين الذين كانوا يكرهون من لا يؤمن بإيمانهم .

وقد كان فى باريس شىء يسمى « برلمان » ولكنه لم يكن يمثل الشعب ، ولذلك كان أعضاؤه يسيرون وينقادون إلى دعاة الاستبداد من الحكومة والكنسية معاً . وقد عنى هذا « البرلمان » بأن يحرق قصيدة لڤولتير !

وألف ڤولتير المعجم الفلسفى ، فمنعت الحكومة الفرنسية . بل معظم الحكومات الأوربية ، تداوله وحكم على مؤلفه بالكفر .

وشاعت لڤولتير أخيراً شهرة بأنه زعيم الحرية ؛ فكانت تصل إليه شكاوى المضطهدين من الأحرار من جميع الأقطار يطلبون منه الدفاع والإسعاف . وكان يجمع لهم المال كى ينقذهم من حكوماتهم ومن كنائسهم .

وما زلنا إلى الآن نسمع عبارة ڤولتير : « اسحقوا الخزى » . وهذا الخزى هو اضطهاد الأحرار المخالفين للكنيسة .

ومع كل ما اتهم به ڤولتير لم يكن كافراً ، فإنه كان يؤمن بالله أعظم الإيمان . ولكنه كان يعتقد أن الكنيسة يجب ألا تحتكر الدين . وأننا يجب أن نكون « إلـٰهيين » قبل أن نكون مسيحيين أو يهوداً أو هندوكيين . وهو يقول إن :

« كلمة الإلهى هى الوصف الوحيد الذى يجب أن يتصف به الإنسان ، والكتاب الوحيد الذى يجب أن يقرأ هو كتاب الطبيعة . والديانة الوحيدة هى أن نعبد الله ، وأن يكون لنا شرف وأمانة . وهذه الديانة الصافية الخالدة لن تكون سبباً للأذى » .

وكان ڤولتير يرى الله فى كل مخلوق ، حتى قال : « إن فى البرغوث شيئاً من الألوهية » .

وكتب عن نفسه فى المعجم الفلسفى يقول :

« إنى أجهل كيف تكونت وكيف ولدت . وقد قضيت ربع حياتى وأنا أجهل تماماً الأسباب لكل ما رأيت وسمعت وأحسست . وكنت ببغاء تلقننى ببغاوات أخرى . ولما حاولت أن أتقدم فى الطريق الذى لا نهاية له ، لم أستطع أن أجد طريقاً معبداً ولا هدفاً معيناً ، فوثبت وثبة

أتأمل الأبدية ولكننى سقطت فى هوة جهلى » .

والواقع أننا حين نتأمل حياة ڤولتير نجد أن الكنيسة الكاثوليكية قد انتفعت بعداوته لها لأنها كفت عن اضطهاد المخالفين . وكان هذا الاضطهاد أكبر ما توصم به فى القرن الثامن عشر كما كان أكبر ما يعمل لفسادها .

وكذلك انتفعت بفصلها من الدولة ، لأن اعتلاء الدين للدولة يضر الدين ويحطه ، إذ يغنيه عن القوة الروحية والأخلاق السامية بما يستمتع به من قوة بوليسية وحماية قانونية . والدين يجب أن يتجرد من أى سلطان مادى[1]، أى حكومى أو بوليسى ، حتى يستنبط قواه الروحية المستقلة ويصل إلى القلوب عفواً دون مساعدة خارجية .

وهذه هى مهمة ڤولتير التى عاملها لأوربا ، مهمة الحرية الفكرية وفصل الدين من الدولة .

وليس لڤولتير عبرة أودلالة واحدة لعصرنا ، وإنما له عبر ودلالات كثيرة ، فإننا نفهم منه أن حرية العقل وحرية العقيدة ، وحرية الضمير هى أثمن ما يملكه البشر .

وأن الحكومة أو الهيئة التى تنتهك هذه الحريات ترتكب أفظع الجرائم ، وهى جريمة الخيانة للروح البشرى . وعبرة أخرى نستخلصها من حياته هى أن الأديب ليس رجل القلم والحبر ، وتقليب الكتب واجترار الأقوال القديمة ، وإنما هو المكافح المبتكر الذى يشترك فى هموم البشر واهتمامات المفكرين دعاة التطور والرقى . وأن أدباء البرج العاجى الذين يقفون بعيداً عن معترك الحياة الاجتماعية والأخلاقية والسياسية لا قيمة لهم ولا منفعة منهم . بل هم بمثابة الجندى الفار من المعركة .

وعبرة ثالثة هى أن بؤرة الأديب شخصيته ؛ من حيث إنه يكتب عن

إحساس ووجدان بما يحس ويجد . ثم يصدر عن ذلك مفكراً للتنظيم والتوجيه . ولذلك قيل إن أسلوب الكاتب هو شخصيته أو هو أخلاقه . ومن المحال أن يقنعنا كاتب فاسق بضرورة الطهارة . أو كاتب يتعلق بالمستبدين وينتفع منهم بضرورة الديمقراطية .

ولقد عشت حياتى وهنئت أيما هناء ، وتعزيت أحياناً أيما عزاء ، بمرافقة ڤولتير وتأمل كلماته وتتبع حياته فى أخطائها وأخطارها وتطوراتها . وعرفت منه معرفة الإحساس والوجدان معاً أن حرية العقل هى قدس الأقداس فى النفس البشرية .

كانت حياة ڤولتير كفاحاً نجح فيه ، ورد إلى الإنسان حريته بعد أن كانت قد حرمته إياها الكنيسة والدولة . واستطاع أن يحمل جماهير أوربا على الإيمان بالطبيعيات بدلا من الغيبيات إلى حد بعيد . كما استطاع أن يرد إلى التاريخ مكانته ، وأن يجعل للتنقيب التاريخى فضل الاهتداء إلى الحق والباطل فى العقائد . ودعا إلى العقل دون العقيدة . وأكبر لذلك من شأن « بيكون » داعية التجربة و « ديكارت » داعية العقل . وكان على وجدان برسالته التاريخية من حيث إنه رائد العصر الجديد ، عصر العقل والعلم . وقد كتب فى عام ١٧٦٠ إلى « هيلڤيتيوس » يقول : « إن هذا القرن بدأ يرى انتصار العقل » .

ولقد عشت فى هذا الوطن الأسيف ، مصر ، نحو ثلاثين سنة من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩٤٩ فى أسر الأحكام العرفية والرقابة القلمية ، وذلك كى يعيش المستعمرون من الإنجليز ، والمستبدون من المصريين ، وهم فى تحالف لمنع الحريات عن الشعب . وقد ألفت كتابين عن الحرية هما « حرية الفكر » وهو تاريخ للأبطال الذين كافحوا التعصب والاستبداد والرجعية والجهل ، ثم « حرية العقل فى مصر » وهو دعوة إلى إلغاء إدارة المطبوعات التى تمنع إصدار الجرائد والمجلات إلا بعد تأدية غرامة

مالية (فى صورة تأمين) وفى كلا الكتابين أنغام تتردد من ذكرى ڤولتير .

وقد كان ڤولتير يقول : « إنى قلما أتعمق ؛ ولكنى واضح الفكرة على الدوام » . وهذه كلمة أستطيع أن أقولها أنا أيضاً . وإذا كنت فى حياتى الأدبية قد وصلت إلى أن أختص بأسلوب ؛ فإنى أعترف هنا بأنى لم أقصد قط إلى هذا الهدف . وإنما كانت غايتى أن أصل إلى التعبير الجلى الذى يوضح فكرتى . وأظن أنى نجحت فى ذلك .

وعند الفرنسيين مثل يقول : « ما ليس واضحاً ليس فرنسيًّا » . ولهم الحق فى ذلك . وهذا الوضوح يعزى إلى التزامهم المنطق السليم الذى تعلموه من ڤولتير وأمثاله .

جيته . . .
الشخصية العـــالمية

المشهور عن جيته أنه أديب عظيم . وقد نقل إلى اللغة العربية من مؤلفاته قصة « آلام ڤرتر » ؛ ودرامة « فاوست » ، وله أشعار رائعة تذكر أبياتاً وقصائد ، لأن كثيراً من سطورها يحوى الحكمة العالية .

وقد كان جيته يكتب يومياته . أى أنه كان يدون الحوادث التى مرت به فى أيامه يوماً بعد يوم ، كى يحاسب نفسه على ما أنجز من أعمال. ونحن ننقل هنا يومين فى حياته كما دونهما .

* * *

فى الصباح انتهيت من المقطوعة الرابعة وأرسلتها للنسخ .
قرأت « فروسشموزلر » عن أنواع الحشرات .
تجارب فى الكهربية الجلفانية .

فى المساء مع شيلر : أثر العقل والطبيعة فى سلوك البشر .

ثم فى الصباح المبكر صححت قصيدتى . . ثم قمت بتشريحات الضفدع .

استراحة فى الصباح فى حديقة شيلر الجديدة . . . تحدثنا عن تخطيطها . . . وقبل ذلك أعدت النظر فى المقطوعتين الأولى والثانية .

وفى الصباح صنعت جدولا للألوان .

* * *

والمتأمل لهذه التدوينات فى يومين من أيام جيته يحتاج إلى التساؤل : أأديباً كان جيته أم عالماً ؟ وهذا السؤال هو موضوع بحثنا هنا .

إن عبقرية جيته لم تكن فى الأدب أو العلم أو الفن ، وإنما كانت فى شخصيته . وصحيح أن له مآثر فى هذه الثلاثة ؛ ولكن مأثرته الأولى هى شخصيته . فقد عيب عليه ذات مرة أنه لا يعنى كثيراً بموهبته فى الشعر والأدب ، فكان جوابه : إن من حقى أن أعنى بشخصيتى ؛ وهى أكبر من أدبى .

إن همّ الأديب الصغير أن يصقل قصيدة أو يحسن تأليف قصة أو مقال ، ولكن هم جيته كان تأليف شخصيته وتربية نفسه .

وجمهور القراء يعرف أدب جيته ؛ ولكن قليلا منهم من يعرفون أبحاثه العميقة فى العلوم . فإن له مكتشفات فى الجيولوجية والبيولوجية والبصريات ، وقد سمى نوع من الصخر باسمه برهاناً على فضله فى الجيولوجية . وكان كبير الاهتمام بأصل الأنواع ؛ وهى المشكلة التى أرصد « داروين » بعد ذلك حياته لحلها وقد استطاع جيته أن يكشف عن أن المخ هو امتداد للنخاع الشوكى . ومما يذكر عنه عقب هزيمة نابليون أنه قدم إليه نبيل ألمانى ، فسأله عن رأيه فى الزعزعة الجديدة التى تعم

أوربا ؛ فأجابه النبيل بأن « الحلفاء » قد أساءوا السياسة فى مؤتمراتهم وأن نابليون . . .

ولكن لم يكد النبيل يتم جملته حتى صاح به جيته : أنا لا أسأل عن هذا . لست أبالى هذا ، إنما أسأل عن هذا الخلاف بين سانت إيلير وكوفيه ولامارك عن أصل الأنواع وتطورها .

وكان هذا الموضوع يزعزع نفس جيته ؛ وكان يهتم به أكثر مما كان يهتم بالسياسة الأوربية التى زلزلها نابليون . ومن هنا اهتمامه بترتيب الحشرات وتشريح الضفدع والطاقة الكهربية . . إلخ .

* * *

ومن الخطأ أن يقال إن جيته كان يهتم بالآداب والعلوم ؛ لأن اهتمامه الأول كان بالحياة . فكان يحب ويختبر ويسيح ويملأ المناصب الحكومية . بل إنه لم يجعل الأدب أو العلوم هدفه ، لأن الهدف الوحيد الذى سدد إليه نشاطه هو شخصيته ، وتعبيره حين كان يقول إنه يبنى « هرم » شخصيته ، يدل القارئ على أن الثقافة كانت عنده وسيلة وليست غاية .

وإذا كان لكل كاتب عظيم رسالة ، فإن رسالة جيته لم تكن الشعر أو القصة أو العلوم . وإنما كانت الشخصية باعتبارها التحفة الأولى للإنسان المثقف الذى يحيا حياة الوجدان والعقل. ومن هنا كلمة « براندیس » الأديب الدانمركى : إن حضارة الأمم تقاس بمقدار تقديرها لجيته .

والمعنى أن الأمة التى ارتقت فى ثقافتها إلى المرتقى الذى تستطيع أن تفهم فيه أن رسالة الحياة هى الحياة نفسها ، هى الأمة الراقية . أما إذا كانت تجعل الحياة وسيلة لأى نشاط أو هدف آخر ، مثل الثقافة أو الصناعة أو الثراء أو غير ذلك ، فهى غير راقية . بل إننا حين نقول إن الحياة هى الهدف إنما نستوعب بهذا التعريف جميع الألوان الأخرى

للنشاط البشرى . ونستوعبها مع ذلك فى تناسق يتفق والحياة العالية .

وستبقى قيمة جيته خالدة على هذا الأساس ، وهو أننا يجب أن نحيا حياتنا فى تعلم واختبار واستمتاع .

ولد جيته فى سنة ١٧٤٩ ومات فى سنة ١٨٣٢ . فعاصر روسو وديدرو وڤولتير ودالمبير ، هؤلاء النجوم الذين أحدثوا النهضة الأوربية الثانية . ثم رأى مخاض العصر الجديد فى الثورة الفرنسية ، وفى شهابها الساطع نابليون . ورأى — عقب هزيمة نابليون فى عام ١٨١٥ — المؤتمرات الأوربية تومئ إلى الاتحاد الأوربى . بل لقد رأى هذه الفكرة تختمر أيام نابليون .

أجل . إنه عاش فى عصر عاصف . ولكنه لم يترك العواصف تمر به وهو جامد ، بل استجاب لها وتفاعل معها ، وقد درس القانون فى الجامعة ، وعرف دوق ڤيمار الذى أحبه وعينه وزيراً لهذه الدوقية الصغيرة . ولم يقبل جيته هذا المنصب لما فيه من أبهة ، وإنما قبله لأنه وجد فيه وسيلة للتدخل فى السياسة الأوربية وفهمها . وزار إيطاليا ، فعرف فيها جمال الشمس وجمال الفن . وتزوج . واستمتع بمسرات العائلة كما كابد همومها . ومارس الزراعة واقتنى ضيعة ، وأشرف على المسرح ، وأحب فتاة حباً كان يحمله على البكاء وهو فى السبعين .

وكان مفراحاً يحب الاجتماع . ولكن هذا المزاج الفرح كان أحياناً — كما هو الشأن فيه — يحمله على الاعتزال والاعتكاف . ولكن أوقات نشاطه وإلهامه كانت تنحصر فى أيام الفرح والاجتماع .

* * *

من علامات النضج فى الإنسان أن يميز بين المعارف والحقائق إذ ليس كل ما نعرف حقيقياً .

وأن يجمع معارفه واختباراته فى فلسفة أو دين . أى يستخرج العبرة البشرية والسلوك الأمثل مما عرف واختبر .

وأن يعتاد استخراج الكليات من الجزئيات بحيث لا يشتغل بالشجرة قدر ما يشتغل بالغابة .

وأن يحس حركة التاريخ فى كل يوم من أيامه .

وأن يكون على إحساس واتصال بالدنيا ، هذه الدنيا ، وهذا الكون .

وأن يكون قد وصل بما لديه من حقائق وبما تربى عليه من تفكير فى الكليات إلى تفاؤل بمستقبل البشر .

فالرجل الناضج هو الرجل المتفائل . وتفاؤله يحمله على كفاح ما لمصلحة البشر .

والرجل الناضج متدين . يحترم الحياة .

وكى نحترم الحياة يجب أن نعمل لرقيها وتطورها إلى أعلى .

ومقياس العلو فى التطور هو مقياس بشرى على كل حال .

وقد كان جيته يجمع كل هذه الصفات التى يتكون منها الرجل الناضج .

* * *

ومن علامات النضج فى الإنسان أن يرتفع من همومه الشخصية إلى الاهتمامات العالمية .

ومن علامات النضج فى الأديب أن يرفع الأدب من آراء وإحساسات تكتب إلى ممارسة فى الحياة . ففن الكتابة عنده يستحيل عندئذ إلى بعض الفن فى حياته هو . ومن علامات النضج أيضاً أن يتعرف الأديب إلى قوات الخير البازغة فيؤيدها وينضم إليها ويكون من جنودها أو قوادها .

وقد حقق جيته كل هذه الأنواع الثلاثة من النضج ، فإن اهتمامه بالعالم طغى على كل اهتمام شخصى آخر : نظرية النطور . قناة السويس اتحاد أوربا . الديانات الشرقية .

وحقق الفن والحب فى حياته ، فإن كلمة الحب لم تكن من كلمات القصص التى كان يؤلفها وإنما كانت عاطفته الغالبة التى كان يمارسها .

وقد عاش فى أيام الانتقال من حكم النبلاء والنظم الإقطاعية إلى حكم الصيارفة والصناعيين والتجاريين ، هذا الحكم الذى عمم الديمقراطية والحرية فانضم إلى هذه القوة الجديدة ودعا إلى تأييدها. بل إننا نستطيع أن نجد هذا الاتجاه فى قصته « فاوست » ، بل لعل هذا الاتجاه هو التفسير الحقيقى لهذه القصة .

وهناك بالطبع من يسأل عن مذهب جيته فى الحياة والأدب والحضارة . ولكننا نحن الذين أحببنا جيته لا نكسب منه معارف ، لأن معارفنا أكبر جداً من معارفه ، كما هى أكبر من معارف أرسطوطاليس أو أفلاطون وإنما نحن نكسب منه منهج الحياة الذى اتبعه ، وهو منهج التعلم والاختبار والاستمتاع .

نكسب منه الحياة الفنية ، أو كما كان يقول حرية الروح : « إن أى إنسان عرف وفهم مؤلفاتى وشخصيتى حق الفهم يضطر إلى الاعتراف بأنى قد حققت لنفسى حرية الروح » .

* * *

كيف كان يعيش جيته ؟ وكيف كان ينظر إلى نفسه ؟ أى ما مقدار وجدانه بشخصيته ؟

كان جيته يخشى الشتاء لأن النهار يقصر والليل يطول . وكان يتعب من القراءة فى ضوء الشموع . وكان هو الذى يقص بنفسه فتيلة الشمعة .

وكانت آخر كلمة نطق بها قبل الوفاة : « النور » لأن النور كان عنده وسيلة التثقيف والتفكير والحياة الحيوية . ولذلك كان يحب الصيف ويكره الشتاء .

وكان يعيش نهاره كله ، فلا ينام ، أى لا يقيل . وكان يفطر فى الساعة الحادية عشرة بفنجان من اللبن والشكولاتة ، ثم يتغذى فى الساعة الثانية ، ثم يتنزه ، ثم يكون العشاء ، فالقراءة والدراسة .

ولما بلغ الثمانين كتب فى يومياته : هل باغت الثمانين ؟ وهل يجب علىّ لذلك ألا أتغير ، بل أعمل كل يوم مثل اليوم السابق ؟ إنى أحس كأنى أختلف عن سائر الناس وأبذل مجهوداً أكبر منهم كى أفكر كل يوم فى شىء جديد ، حتى أتجنب السأم . أجل! يجب أن نتغير على الدوام وأن نجدد شبابنا على الدوام ، وإلا تعفنا ! »

ومن أقواله فى شيخوخته أيضاً : « إنى أمتاز بالحظ الحسن فى شيخوختى لأنى أجد فى ذهنى أفكاراً . لو أنى شئت أن أواليها حتى تنكشف لاحتجت إلى أن أعيش حياتى مرة أخرى » .

وكان يكتب يومياته ، وكأنه يحاسب نفسه على درجات رقيه وبناء شخصيته يوماً بعد يوم .

وكانت حياته خصبة بالحب ، ولم يكن يعرف النسك أو التقشف. ولم تكن فترات اعتكافه عن رغبة فى النسك ، وإنما هى بعض المزاج العام فى الفرحين وكأنها ادخار للقوة للانتفاع بها أيام السرور .

وكانت اختباراته كثيرة واستمتاعاته الإحساسية شاملة كما كانت ثقافته موسوعية لم يحصر ذهنه فى تخصص . فقد أحس الحب الحنانى وهو فى التاسعة عشرة فألف قصة « آلام ڤرتر » ، ثم جحدها لأنها تحفل بالحنان واليأس والضعف . وكان يقوم إنه يخجل منها عندما أينعت شخصيته

وأخذ وجدانه وتعقله مكان إحساسه وعاطفته .

* * *

بدأ جيته حياته الذهنية بتعلم القانون وتأليف قصة اليأس والموت فى « آلام ڤرتر » وانتهى فى سنى نضجه وإيناعه باتجاه إيجابى بنائى للحياة البشرية فدعا إلى وحدة أوربا ، وألف قصيدة فى مدح نابليون قال فيها : « إن الذى يقدر على كل شىء ، يقدر أيضاً على السلام » . ما أبدعه هنا!

وكان يفكر فى قناة السويس وقناة بناما . ويشتهى أن يعيش خمسين سنة أخرى كى يراهما محفورتين مسلوكتين . ذلك أنه اتجه الوجهة العالمية . فأصبح يقول ، كما كان يقول شيلر : « وطنى هو العالم » . ولذلك صار يهتم بهندسة هذا العالم وتنظيمه كما لو كان مملكته الخاصة .

* * *

جيته هو واحد من أولئك الذين تعلمت منهم . ولم أتعلم فنًّا أو أدباً أو علماً وإنما هو منهج الحياة التى عاشها جيته كان ينبهنى من وقت لآخر كى أعيش على مستواه .

ولست أجد فى جميع مؤلفات جيته من الشعر أو القصص شيئاً عظيماً سوى القليل من اللآلئ . وهو من حيث الشعر يدمن ذلك الطراز الذى يذكر له البيت الذى يتوهج بالحكمة ، ولا تذكر له القصيدة التى تعالج موضوعاً . ولذلك نحن لا ندهش ولا نتعلم كثيراً حين نقرأ مؤلفاته ، ولكننا نتعلم وننتبه ونحس كأننا كنا نياماً ثم استيقظنا حين نقرأ حياته .

هو منهج الحياة الذى يعيد إلينا ذكر « دافنشى » الرسام المثال الجيولوجى المهندس الفيلسوف الأديب الرياضى العاشق ، الذى تعددت اهتماماته لا لأنه تعمد هذا التعدد ، وإنما لأنه نظر إلى الطبيعة النظرة

الموضوعية الموسوعية التى تثير الاستطلاع وتهيئ المشكلات الثقافية التى يشتغل بها الذهن .

وكان جيته مثل دافنشى ينظر إلى الطبيعة : بل إلى الفنون ، هذا النظر الموضوعى . ومن هنا زاد استطلاعه وتعددت اهتماماته ؛ وأصبحت ثقافته موسوعية . والحق أن الأدب لم يكن عند جيته فنياً ، وإنما كان الفن الذى اهتم به هو فن الحياة . ثم كان الأدب جزءاً من فن الحياة .

* * *

نتعلم من جيته أن غاية الحياة هى الحياة . أى ترقية الشخصية بتربيتنا : وبسط الآفاق أمامنا للتعلم والاختبار حتى نزداد فهماً لأنفسنا وللطبيعة ، فنزداد بذلك استمتاعاً .

ونتعلم منه أننا يجب أن نؤلف شخصيتنا قبل أن نؤلف أى شىء آخر ليس هناك ما هو أهم منها عندنا . وذلك بأن نطلب الاختبارات . ولو كان الخطر فيها .

ونتعلم منه أن التخصص ضرر ، وأن الآفاق للثقافة لا حد لها . فيجب أن ندرس الأدب كما ندرس الكيمياء والتشريح الذرية ، بل كما ندرس جنون الشيزوفرانيا وقوانين الوراثة .

ونتعلم منه أننا يجب أن نشترى الاختبارات إذا لم تصادفنا . فنقرأ ونسبح ونحب ونمارس السياسة ونختلط بالمجتمع ونشتغل بترقيته .

ونتعلم منه أننا — حتى فى الشيخوخة — يجب أن نستبقى شباب الذهن والعاطفة . ولن يكون هذا إلا بتهيئة سابقة .

وأخيراً نتعلم منه أننا أبناء هذا الوطن الكبير : العالم .

* * *

قلنا إننا لا نكسب من جيته معارف ، وإنما ننتفع به من حيث أسلوب حياته : حياة فلسفية تتغذى بالثقافة وتهدف إلى تربية الشخصية

بالنمو الذى يستحيل إلى نضج .

ولكننا مع ذلك نجد أن لجيته عبرته ودلالته فى الموقف الثقافى الأوربى بين عامى ١٨٠٠ و ١٨٢٩ .

ذلك أن المذهب الانفصالى كان لا يزال قائماً بين النفس والجسم أو العقل والمادة . وداعية هذا المذهب الثنوى هو أفلاطون الذى فصل بين الفكرة والمادة . وقد أيدت العقائد الدينية هذا الانفصال ، ولكن جيته رأى غير ذلك. بل ربما كان هو أول أديب دعا إلى الوحدة الوجودية فى أوربا ، أى أن الجماد والنبات والحيوان والإنسان والمادة والعقل كلها شىء واحد . وأن الإنسان ليس مخلوقاً منفصلا وإنما هو تعبير خاص للطبيعة العامة التى فى الجماد والحيوان والنبات ، وأن الحقيقة الأولى فى هذا العالم هى التغير والاستحالة . فالطبيعة دائبة فى التغير والتشكل بأشكال مختلفة . وأن الفكر البشرى نفسه قد نبع من الطينة التى نبضت بالحياة الأولى .

وقد قال ذات مرة إن أعظم ما يصبو إليه أن يهتدى إلى قانون شامل عام تنتظم به التغيرات والاستحالات فى الجماد والنبات والحيوان والإنسان .

ولو كان جيته يعيش فى عصرنا لعبر عن هذه الشهوة بأنه ينشد التفسير الذرى للجماد والحياة والفكر البشرى والماء السائل .

وهذا هو ما ننشده جميعاً ونوشك أن نهتدى إليه .

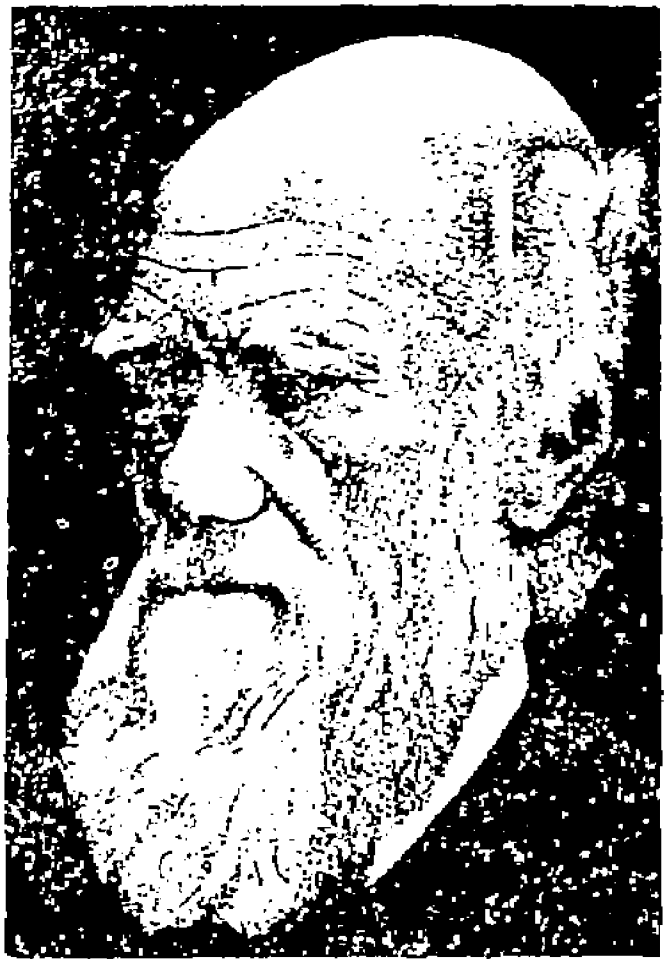

داروين . . .
عار العـــائلة

« أنت لا تعنى إلا بصيد الكلاب ، واقتناص الجرذان ، وسوف تكون عاراً على نفسك وعلى عائلتك » .

هذه هى الكلمات التى تلقاها داروين من أبيه فى وقت كان يلوح لأى إنسان يتأمل داروين أنها صحيحة ، وأن هذا الشاب قد خاب الخيبة التامة . فقد تسكع فى دراسات مختلفة ، ولكنه لم يستقر على واحدة منها . فقد التحق بكلية الدين ثم تركها ، والتحق بكلية الطب ثم تركها . وفى غضون ذلك كان يلعب ، أو على الأقل كان يبدو كأنه يلعب . يخرج إلى الحقول ويجمع النبات ويصيد الحشرات ويقارن بين الأحياء ، ويفكر تفكيراً سريًا كأنه يتآمر على الكون كله ، كى يغيره أو يغير البصيرة البشرية فيه .

والآن بعد أكثر من مائة سنة من هذه الكلمات القاسية التى قالها أبوه عنه لا يعد داروين عاراً على عائلته . بل هو فخر أمته يتباهى به التاريخ الإنجليزى . وبعد نحو خمسين سنة من هذا التوبيخ الأبوى تأمل داروين حياته الماضية . ومبلغ ما أتمه من الخدمة فى التوجيه الذهنى للعالم فقال : « أظن أن أبى قد قسا على بعض القسوة » .

ومات داروين فى عام ١٨٨٢ بعد كفاح ثقافى طويل ، ونحن الآن بعد وفاته بأكثر من نصف قرن . نستطيع أن نقول إنه أكسبنا فهما جديداً للطبيعة والكون والإنسان . وزودنا بمنهج للتفكير لم نكن نعرفه من قبل . فإن كتابه « أصل الأنواع » الذى أخرجه فى عام ١٨٥٩ حمل إلى القراء شيئين : أولهما معارف تكاد تكون حقائق عن أصل الأنواع فى الحيوان والنبات . وأنها جميعها ترجع إلى أصل واحد أو أصول قليلة . وثانيهما منهج للدراسة هو أن الاستقرار لا يعرف فى الطبيعة . وأن الإنسان والحيوان والنبات فى تغير مستمر .

ونحن الآن لا نبالى الحقائق أو المعارف التى شرحها داروين لأننا نعرف أكثر منها . ولكننا قد اتجهنا الوجهة التى عينها لنا . ونحن هنا بهذه المثابة نفسها نحو أرسطوطاليس . فإننا نعرف أكثر منه من حيث الكم فى المعارف . ولكنه أكسبنا المنهج . فنحن نفكر فى التطور الداروينى ونفكر متطورين . وقد أصبح التطور حقيقة علمية نقيسها بالمليمتر والمليجرام فى الحيوان والنبات ، كما أصبح أيضاً مذهباً دينياً . أو مبدأ أخلاقياً عند المثقفين . وانفسح به التاريخ البشرى آفاقا إلى ملايين السنين . بل مئات الملايين خلف البشر وبعد البشر .

لقد قيل إن جاليل (جاليليو) حط الإنسان من عليائه . حين أعلن أن الأرض ليست مركز الكون . وأنها كوكب صغير يدور حول الشمس . بل الشمس أيضاً نجم صغير لا يختلف عن ملايين النجوم التى

نراها كل ليلة فى المساء . ولكن داروين رفع الإنسان إلى هذه العلياء من جديد ، وأثبت أنه لم يكن عالياً فسقط . وإنما هو كان ساقطاً يعيش على حضيض الطبيعة ، حيواناً كسائر الحيوانات والحشرات ، ثم ارتفع . وبهذه الكرامة الجديدة انتقل من أسر القدر ، وأحس أنه تاج التطور ، وأن له الحق فى تدبير هذا العالم ، وفى تعيين السلالات القادمة . بل ماذا نقول ؟ فى إيجاد البشرية الجديدة . . .

ومع ذلك لا أعتقد أن داروين نفسه ، كان يقدر الطاقة الكامنة فى نظريته . ولا ينتقص هذا من عظمته ؛ فإن تفكيرنا الشخصى يسير بقوات اجتماعية ، لا نكاد نبصر بها أو نتعمق أصولها . ذلك أننا نفكر بحواجز من العواطف التى نكتسبها من المجتمع . بما يفرضه علينا من القيم والأوزان ، وما يرسمه لنا من المطامع والآمال . والمجتمع يطالبنا باستجابات مختلفة تستحيل فى كياننا النفسى إلى عادات عاطفية لا نستطيع الخروج منها . فنفكر فى منهج خاص هو ثمرة هذا التوجيه الاجتماعى الذى لا نحسه لأنه لا يرتفع إلى وجداننا وتعقلنا .

ولذلك نستطيع أن نقول إن نظرية داروين وجدت الحافز الأول على التفكير فيها من المجتمع الذى عاش فيه داروين . ذلك أن داروين قضى زهرة حياته إلى نضج الشباب وإيناع الكهولة ، فيما بين عامى ١٨٢٠ و ١٨٦٠ ، وكان عمره وقتئذ بين العشرين والخمسين ، وكانت إنجلترا فى تلك السنين ترعى وتزبد بالحركة الصناعية الجديدة . فالمصانع تحتشد بالعمال من الرجال والنساء والصبيان . والثروات تنمو ، والمزاحمة على أقصاها . وإنجيل النجاح يدرس بل يعبد . والسياسة تخدم الاقتصاد ، وتضرب الأمم النائية وتؤسس الأسواق والمستعمرات . وأصبحت إنجلترا سيدة البحار لأنها احتاجت إلى أكبر أسطول يحمى مستعمراتها وأسواقها التى تباع فيها مصنوعاتها الفائضة .

وعاش داروين فى تنازع البقاء هذا الذى لا يفتر فى لنكشير وغير لنكشير من الأقاليم الصناعية فى إنجلترا .

وفى تلك السنين أيضاً قرأ كتاباً أحبه وتعلق به لأنه وجد فى نفسه الاستجابة لنظريـــاته بما تكون له من عواطف أحدثها الوسط الصناعى الإنجليزى ، هو كتاب القسيس « مالتوس » عن السكان . فإن هذا القسيس كان من المحافظين الإنجليز الذين يكرهون العامة ، ولا يرون فيهم سوى غوغاء . فلما انفجرت الثورة الفرنسية واستولى بها الشعب على حقوق السادة من الملوك والعظماء ، ثم أعلن رجالها مبادئ الإخاء والمساواة والحرية ، فكر مالتوس كثيراً بحافز من عواطفه ، فأخرج كتابه عن السكان ، وكان المعنى الذى قصده إليه أن هذه الآمال الفرنسية فى الإخاء والمساواة والحرية لن تتحقق لأن الدنيا لا تكفى الناس الذين يتوالدون على نظام تضاعفى ٢ و٤ و٨ و١٦ إلخ فى حين أن المحصولات لا تنتج إلا على نظام حسابى ١ و٢ و٣ و٤ و٥ إلخ . فإذا عاش الناس بلا مرض أو حرمان لم تكفهم المحصولات ، وإذن فالمرض والحرب والحرمان رحمة بالناس أو ضرورة لهم . وتأمل داروين هذا الكتاب الذى ألفه مالتوس عن المجتمع البشرى فتساءل : لم لا ينطبق هذا الكلام على المجتمع النباتى والحيوانى فى الطبيعة ؟ فإن الطعام لا يكفى جميع الأحياء التى تتوالد أو تتكاثر بالألوف ، فهى يجب أن يزاحم بعضها بعضاً ، فتكون الحرب بينها ، أى تنازع البقاء ، كما فى لنكشير ومصانعها تماماً .

وفى عام ١٨٣١ أنفذت الحكومة البريطانية سفينة « البيجل » كى تطوف حول العالم وتسبر الأعماق وتدرس الشواطئ وتقيس الأبعاد ، ولكن لماذا عمدت الحكومة البريطانية وحدها دون سائر الحكومات إلى الاهتمام بهذا الموضوع ؟ ما هى العاطفة الحافزة إلى هذه الدراسة التى لم تفكر فيها ألمانيا أو روسيا أو إيطاليا ؟

العاطفة الحافزة اجتماعية أيضاً . وذلك أن الحكومة البريطانية فى تلك السنين كانت تخدم الصناعات البريطانية : لأن السياسة على الدوام تسير خلف الاقتصاد ، وكانت أسواق العالم وقفاً على المصنوعات الإنجليزية . لأن الحركة الصناعية الإنجليزية سبقت الحركات الأخرى فى جميع الأمم . فمن هنا كان الاهتمام بالبحار والملاحة والأقطار النائية ، ومن هنا أيضاً كانت الفرصة لداروين فى أن يلتحق بالسفينة « بيجل » كى يدرس الحيوان والنبات .

ولم يكن داروين جديداً فى هذا البحث : أصل الأنواع . فإن لامارك الفرنسى سبقه إليه . وهو صاحب القول بأن عنق الزرافة قد طال لأنها . بالمرانة التى ورثت جيلا بعد جيل . قد اشرأبت وسعت للوصول إلى الغصون العليا فى الأشجار . فكأن ما يكسبه الحيوان بجهده من صفات يورث جيلا بعد جيل . بل إن جد داروين قد بحث هذا الموضوع ، فكانت النظرية « فى الهواء » تحتاج إلى من يرتب أصولها وفروعها ويعلل مظاهرها . بل كانت أكثر من ذلك . فإن جيته الأديب الألمانى كان يشتغل بها ويسأل عنها . وكان يتابع النقاش الحامى بين كوفييه الذى كان يقول بثبات الأحياء ، وبين سانت هيلير الذى كان يقول بتحولها .

كان داروين شاباً فى الثالثة والعشرين حين شرع فى رحلته على البيجل . فلما وصل إلى أمريكا الجنوبية ، وجد حيوانها ونباتها يختلفان عما هما فى القارات القديمة . ثم لما وصل إلى الجزر المنعزلة غرب أمريكا الجنوبية وجد أن انعزال الجزيرة يؤدى إلى انعزال الحيوان ، فتكون له أشكاله التى ينفرد بها من الأشكال العامة على القارات .

وإلى هنا يكاد يتوهم القارئ أنه ليس هناك أى فضل لداروين فى تعليل النظرية . فقد سبقه إليها جده كما سبقه إليها لامارك الفرنسى .

ثم هناك الظروف الأخرى : كالتوس وقلة الإنتاج الغذائى إزاء تضاعف السكان . ثم تنازع البقاء وبقاء الأصلح وفناء الضعيف فى المزاحمة العنيفة فى لانكشير حيث الحركة الصناعية فى عنفوانها .

ولكن لا ! لأننا مع التسليم بأن الوسط الاجتماعى أو البيئة الثقافية . فى أوسع معانيها . حين تشمل المعيشة والاتجاه أو العادات والعواطف . هى الحافز للتفكير . فإننا مع ذلك يجب ألا نغفل الشخصية . إذ لو لم يكن داروين ذكيًّا لما فكر فى هذا الموضوع الخطير ؛ ولما جعله هدفه فى الحياة .

لقد قال داروين عن نفسه : « إن الحقائق تضطرنى إلى الاعتراف بأن عقلى لم يخلق للتفكير » .

ولكن داروين ظلم نفسه فى تواضعه بهذه الكلمات . لأن الحقيقة أنه لم يعرف نفسه . إذ أن الواقع أنه لا يقول هذه الكلمات إلا رجل مفكر قد أسرف فى التفكير وعنى العناية الكبرى بغربلة الحقائق من المعارف . وعرف الصعوبة الكبرى فى هذا الجهد . ولو أنه لم يكن يجهد لما قال هذه الكلمات ، إذ أنها ما كانت لتخطر فى باله .

الحقيقة الواضحة من حياة داروين أنه احترف التفكير . وأنه كان مريضاً أو متمرضاً ، فى نفسه حزازة قديمة هى جرح الكرامة . هذا الجرح الذى أحدثه أبوه وعيّره به كما نرى مثلا من وصف أبيه له بأنه سوف يكون عاراً لعائلته . فقد كان لا ينام فى الليل إلا بعد أرق الساعات . وكان فى هذه الساعات يفكر ويؤلف . فإذا جاء النهار كتب كلماته القليلة . ثم يبقى سائر نهاره مريضاً . ومرضه هو هذا المرض النفسى الذى يخترعه النيوروزى ويعيش به ويستقر عليه ، كأنه يقول : طالبتم منى النجاح والتفوق . وكيف أستطيع هذا وأنا مريض ؟

مرض يصون الكرامة المجروحة (أنت عار لعائلتك) وفى الوقت

نفسه يهيئ الفرصة للتفكير فى حضانة ليلية يسميها الأصحاء أرقاً . ولو أن داروين نجح وصار قسيساً أو طبيباً كما كان يشتهى أبوه لكسب العالم قسيساً أو طبيباً يمارس حرفته ويكسب منها . ولكن العالم كان يخسر عندئذ هذه العبقرية المرضية التى زعزعت الثقافة العالمية من أساسها ، بل زلزلتها . وعينت أهدافاً جديدة للإنسان . وأكسبته بصيرة جديدة لرؤية الماضى ورؤيا المستقبل .

لقد بقى داروين نحو ثلاثين سنة وهو يفكر فى التطور ، ولكنه لا يخرج كتاباً عنه ولا يكتب مقالا . ثم حدث حادث أزعجه فانتفض منه . هو أن « وولاس » كان فى بعض الجزر التى تقع فى الجنوب الشرقى من آسيا يجمع الأزهار والحشرات ويحنطها ويبعث بها إلى الجمعيات العلمية . وكان مشغولا بالموضوع نفسه ، أى التطور . وكان يعرف أن داروين مشغول به أيضاً . فأرسل إليه رسالة علمية يشرح فيها رأيه فى هذا الموضوع . وصعق داروين إذ وجد أن وولاس قد سبقه إلى تعليل التطور بأن الطعام قليل فى الطبيعة ، وأن التوالد كثير بين أنواع الحيوان والنبات . فلا بد أن يكون هناك تزاحم أى مسابقة من أجل الطعام ، وفى هذا التزاحم أو المسابقة لا يبقى غير الأقوى الأصلح للبقاء حين يموت العاجز الضعيف وينقرض .

وسارع داروين إلى إبلاغ الهيئات العلمية فى إنجلترا عن رسالة وولاس . وشرع هو أيضاً يؤلف كتابه « أصل الأنواع » . ونستطيع أن نتخيل داروين فى حزنه ونزاهته معاً . ولكن وولاس بعد ذلك بسنين اعترف بأن العالم كسب ولم يخسر بتزعم داروين لهذه النظرية . لأنه كان أوفى منه معرفة وأنصع بياناً وأدق منطقاً .

وأخرج داروين كتابه « أصل الأنواع » فى عام ١٨٥٩ فتغيرت الرؤية والرؤيا البشريتان .

وكثير من النظريات التى غيرت التفكير البشرى تبدو غاية فى السهولة والبساطة ، حتى ليتساءل الناس : كيف جهل السالفون هذه النظرية على وضوحها ؟

فإن داروين يتحدث عن الحمام والكلاب وغيرهما مما يربيه الناس ، وكيف استطاعوا أن يخلقوا العشرات والمئات من السلالات الجديدة وما استطاعه الإنسان فى مئات السنين القليلة قد استطاعته ، وأكثر منه الطبيعة فى ملايين السنين الماضية . حتى أخرجت الأنواع فضلا عن السلالات فهناك ، فى الغابات والبحار والسهول ، إنتاج محدود من الطعام . ولكن هناك توالداً يتضاعف بين الحيوان والنبات . ولا يمكن أن يكفى الطعام هذه الملايين بل ملايين الملايين من النبات والحيوان . فلا بد إذن من أن تتنازع الأفراد لأجل البقاء ، أى لأجل الحصول على الطعام . وقد يكون السبب للتفوق فى هذا التنازع ثم البقاء خفيًّا . هو كما فى النفس الأخير ، فى الثوانى القليلة ، فى صراع يدوم الساعات ، أو فى القدرة على الجوع أو العطش ، أو فى طرق الحماية للنسل ، أو فى القدرة على التطفل ، أو فى الجراءة والبطش .

وما دام كل فرد يولد مختلفاً عن الآخر فى الحيوان والنبات ؛ فإن هذا الاختلاف ينطوى بلا شك على ميزة أو عجز . فهو يساعد فى الحال الأولى على البقاء والانتصار فى معركة الحياة . وهو يهيئ الهزيمة فى الحال الثانية . ولا نعرف الأسباب لهذا الاختلاف ، ولكننا نشاهده ونسلم به . ولذلك لا بد أن يستمر التغير جيلا بعد جيل . فإذا تراكمت التغيرات أحدثت السلالات الجديدة . وإذا زاد الاختلاف بين السلالات ظهرت الأنواع الجديدة .

وعلى هذا يجب أن نسلم بأن الأحياء ، نباتاً وحيواناً ، ليست الآن كما كانت قبل مليون أو مائة مليون سنة . لأن التغير والتطور هما طبيعتها

ونستطيع أن نستنتج أنه مادام لنا تاريخ ماض فى التطور فسوف يكون لنا تاريخ قادم أيضاً تتغير فيه الأحياء .

وهذه هى الدلالة الخطيرة التى انتهى إليها قراء داروين ، وهى أن الحياة فى بوتقة لم تتجمد قط . وأن البوتقة لا تزال تصهر وتخرج عناصرها مركباتها . وهذا هو التوجيه الجديد الذى سدد داروين عقولنا إليه ونحن فى بداية هذا ، هو التوجيه الذى يخشى كثير منا دلالته لأنه يحمل فى طياته مشروعات بشرية خطيرة . ولأنه يضع النظام المادى للإنسان والحيوان والنبات مكان النظام الغيبى .

لقد عالج داروين تطور الأحياء ، وحاول تعليل التطور ، ونجح إلى حد ما فى هذا التعليل ، ولكنه لم ينجح كل النجاح . وذلك لأن عواطفه الاجتماعية التى اكتسبها من المزاحمة الصناعية التجارية فى لنكشير ، ومن كفاح الإمبراطورية لخطف الأسواق وإذلال الأمم ، هذه العواطف هى التى حملته على أن يكبر من شأن التنازع ، تنازع البقاء . وحال هذا بينه وبين رؤية التعاون فى الطبيعة ، لأن الواقع أن البقاء عن طريق التعاون بين الحيوان والنبات أكبر وأوسع من البقاء عن طريق التنازع .

ونحن نعرف الآن كثيراً ، أى أكثر مما كان يعرف داروين ، ولكن لداروين فضل التوجيه وتعيين الخطط للبحث . وأنه زودنا برؤيا بشرية جديدة وأطلق أذهاننا من أغلال العقيدة إلى حرية البحث والدرس . فقد نقلت نظرية التطور من الأحياء فى الطبيعة إلى الناس فى المجتمع ، وصار من المألوف أن نجد دراسات منظمة عن الأخلاق والأديان وفق النظرية التطورية ما كنا لنراها لولا داروين . وانبسطت للبشر آمال فى المستقبل ، وتغير معنى الارتقاء البشرى لأننا نقلنا هذا المعنى من وسط الإنسان إلى الإنسان نفسه . كما أصبح التطور فنًّا نمارسه فى إيجاد

سلالات جديدة من القطن أو القمح أو الفاكهة ، وقد اجترأ هتلر وأعوانه على أن يفكروا فى سلالات بشرية جديدة .

ويجب ألا يعمينا الاستغراض الديمقراطى عن هذا الابتكار النازى الذى دعا إليه هتلر . فإن نظرية التطور لا بد أن تخرج من التفكير إلى التطبيق . . . بل هى كذلك الآن ، ومنذ مئات السنين فى حيواناتنا ونباتاتنا ، ونقلها إلى النوع البشرى لن يعدو وثبة كبيرة .

* * *

أرانى بعد كتابة ما تقدم أنى التفت إلى شخصية داروين وتحليلها أكثر مما التفت إلى تحليل نظريته ودلالتها . ولذلك أحتاج إلى الاشارة إلى التنقيحات التى طرأت على هذه النظرية . وأولها وآخرها هو الرجوع إلى لامارك : « إن الصفات المكتسبة تورث » . وداروين نفسه لم ينكر هذه الوراثة ولكنه لم يبرزها كما أبرز « تنازع البقاء وبقاء الأصلح » .

ومع أن داروين التفت كثيراً إلى الدواجن ، وكيف أن الإنسان استطاع أن يخرج مئات السلالات من الحمام والدجاج والكلاب والخيول ، ومع أنه نقل هذا المنطق من الإنسان إلى الغابة ؛ باعتبار أن تنازع البقاء يحيى ويبيد ، ويقف من النبات والحيوان موقف الإنسان فى اختيار الصفات التى تعمل لبقاء الأفراد ، فإن الموقف البيولوجى ينكر هذه الأيام قيمة هذه المقارنة بين التنوع فى الدواجن والتنوع فى الأوابد . ذلك لأن المشاهدة تثبت أن التنوع فى الطبيعة قليل جداً أو يكاد يكون معدوماً ، كما يثبت أن ما أحدثناه نحن البشر من التنوع فى الدواجن إنما هو عن بعيد مصلحة هذه الدواجن . وهو أشبه بالمرض منه بالصحة وقد أحدثناه بحياة غير طبيعية لهذه الدواجن .

ولذلك نحن ننزع هذه الأيام إلى « داروينية جديدة » تعتمد على أن عادات الآباء يرثها الأبناء حتى إذا تراكمت أوجدت العضو الذى

يؤديها . كالجمل الذى عاش فى الصحراء وكان يحتاج إلى أن يبرك على الحصا الذى يجرح جلده . فتضخم الجلد فى أمكنة الملامسة وأصبحت هذه الخاصة وراثية . وكاللجاة (التى كانت مثل الـ لاحف على اليابسة) احتاجت إلى السماك طعاماً فنزلت إلى البحر . ومازالت تمارس السباحة حتى استحالت يداها إلى زعنفتين . . إلخ .

* * *

ولا أعرف كاتباً تأثرت منه أكثر مما تأثرت من داروين . فإنه أعطانى القاب الذى أزن به أحياناً . وأحياناً أهدم به التقاليد . وجعل التطور مزاجاً تفكيريًّا ونفسيًّا عندى ؛ بل جعله عقيدتى البشرية التى تنأى عن الغيبيات . وقد أصبحت أقيس الأمم بمقدار تطورها ؛ وأقيس آمالى الاجتماعية بمقدار ما أجد من قدرة على التطور . ذلك أن التطور فى أساسه منطق علمى ؛ ولكنه قد استحال عندى إلى عقيدة قلبية .

وإذن يجب أن أعد داروين المعلم الأول الذى علمنى .

[redacted]

[redacted]

[redacted]

ڤيسمان . . .
المؤلف الذى أفسد ذهنى

أفسد ذهنى نحو أربعين سنة ، بل لعله أفسد أخلاقى أيضاً من حيث أنه غرس فى نفسى فلسفة اجتماعية خاطئة . فجفت عندى ينابيع السخاء البشرى ، وتولدت عندى نظريات بشأن تنازع البقاء ما كنت لأومن بها لولا هذا المؤلف الألمانى المدعو « ڤيسمان » . ذلك أنى كنت فى الأول من هذا القرن مشغول الذهن بنظرية داروين عن تنازع البقاء وبقاء الأصلح . وكانت هذه النظرية فى ذلك الوقت هى ، عند جميع المفكرين ، علة التطور . فإن أوربا المثقفة كانت قد سلمت بأن الأحياء تتغير وتتطور ، وأنها تعود كلها إلى أصل واحد ، ولكن كان هناك خلاف بشأن العلة أو السبب لهذا التطور . .

وكان لامارك ، قبل داروين ، قد علل التطور بالعادات . أى أن

الحى عندما يتغير وسطه الذى يعيش فيه ؛ سواء أكان ذلك بتغيير المناخ أم الطعام أم الأعداء . هذا الحى يتعود عادات جديدة تلائم هذا الوسط الجديد . ويتغير بذلك جسمه بعض الشيء ، ثم يأتى نسله فيرث شيئاً من هذا التغير . ثم تتراكم التغيرات على مدى الأجيال المتعاقبة بالمئات والألوف فتظهر سلالات جديدة تختلف من أسلافها . ثم تتراكم هذه التغيرات فى هذه السلالات حتى تفصل ما بينها وبين الأسلاف . وتعود السلالات القريبة أنواعاً مستقلة منفصلة .

هذا ما كان يعلل به لامارك التغيرات التى تؤدى إلى التطور . وقد سلم داروين — إلى حد ما — بهذا التعليل ، ولكنه لم يقصر التغيرات التطورية عليه ؛ بل اعتمد على ماسماه « تنازع البقاء » . والقارئ لمؤلفاته يفهم أن التغييرات تحدث لأسباب نجهلها ، ولكنها تورث فإذا كانت الصفة الموروثة حسنة فإنها تؤدى إلى انتصار الفرد المتصف بها من الحيوان أو النبات فى تنازع البقاء ؛ أى فى مباراته لغيره من نوعه أو الأنواع الأخرى ، ولكن مع كل ما قاله داروين هنا يجب أن نذكر أنه قال إن تأثير الوسط فى الحى لم يدرس الدراسة الكافية ، وبذلك ترك الباب مفتوحاً للشك والبحث شأن الباحث العلمى المنصف .

وفيما بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩١٠ كان النقاش يدور حول الصفات المكتسبة ، أى العادات ، أتورث أم لا تورث ؟ ولزيادة الإيضاح نقول : هل طال عنق الزرافة لأنها تعودت مد هذا العنق إلى الغصون العليا من الأشجار أو الأعشاب السفلى على الأرض ، ثم أورثت ذريتها هذه العادة حتى طالت أعناقها ؟ أم أن هناك سبباً أو أسباباً أخرى لهذا الطول ؟

والمعقول الذى يسلم به المفكر لأول وهلة أنه لا يمكن أن يكون هناك سبب آخر لهذا التغير والتطور سوى الذى كانت تعيش فيه الزرافة . أى أنه إذا لم يتغير الوسط ، ويؤدى تغيره إلى أن يغير

الحى عاداته ؛ فلن يكون هناك سبب ما للتغير والتطور . ومعنى هذا أن لامارك كان مصيباً كل الإصابة فى تعليله للتطور بالعادات التى يتعودها الفرد .

هذا هو المعقول . ولكن إذا لم يتفق المعقول مع الواقع ؛ وجب أن نسلم بالواقع ونرضى بالنزول عن هذا المعقول. لأن ماعقلناه ربما قد خفيت عنا فيه أشياء .

ووقع فى يدى حوالى سنة ١٩٠٩ كتاب يدعى « الجرثومة المنوية » للمؤلف الألمانى ڤيسمان . وكان هذا المؤلف علمى الذهن ، لا يسأل ما هو المعقول ؟ وإنما يبحث عن الواقع الذى تثبته المشاهدة والتجربة . وقد وجد بالمشاهدة المكروسكوبية أن الجراثيم المنوية ، أى التناسلية ، فى الحيوان مستقلة تمام الاستقلال عن الخلايا الجسمية . وهى تسكن فى أجسامنا وتتغذى من دمائنا ؛ ولكنها لا تتأثر بحياتنا أقل التأثر . ونحن نتسلم هذه الجرثومة من آبائنا ونسلمها لأبنائنا . وهؤلاء يسلمونها للأحفاد دون أن تتأثر بالأجسام التى التصقت بها وعاشت عليها .

وقد وصل ڤيسمان إلى هذه النتيجة بالمشاهدة . فإن الجنين فى أولى ساعات تكوينه يتألف من خليتين : إحداهما خلية تناسلية والأخرى خلية جسمية . والأولى تبقى راكدة لا تنمو إلا عند المراهقة ، حين تنشط وتتكاثر . أما الثانية فتتكاثر منذ الساعات الأولى لتكون الجنين . ، وهى التى يبنى منها الإنسان أو الحيوان أو النبات .

وإذن فمهما تغير الوسط من البرد إلى الحر ، أو من السهل إلى الجبل ، أو من الرطوبة إلى الجفاف ، ومهما تغير الغذاء من النبات إلى الحيوان أو العكس ، ومهما تغيرت حركات الجسم بالعمل والكفاح ، ومهما تغير نشاط العقل بالدراسة أو عدمها ، ومهما تغيرت عاداتنا السلوكية ،

فإن الجراثيم المنوية التى تسلمناها من جدودنا وأسلافنا سنسلمها لأبنائنا وأحفادنا كما هى دون أن تتأثر بما تأثرت به أجسامنا نحن . ولذلك ليس فى ترقية الوسط أية ترقية للإنسان . لأن التفاوت فى الكفايات لا يعود إلى تفاوت فى الوسط ، وإنما إلى تفاوت فى الوراثة ، هذه الوراثة التى لا نعرف فى زعم ڤيسمان كيف تؤثر فيها أو تغيرها .

وقد كافح هربرت سبنسر هذا القول ، وكانت عباراته : « إذا لم يكن الوسط سبباً لتغير الأنواع فلا أعرف سبباً آخر للتطور » . ومع أن هذه الكلمات ينادى بل يصيح بها المنطق والتفكير السليم فإنى لم أستطع إلا التسليم بما قاله ڤيسمان ، لأنه قائم على المشاهـــدة التى هى بينة العلم .

ثم عرفت بعد ذلك تجارب الراهب « مندل » ، التى كان قد أجراها فى القرن الماضى فى اللوبيا أو الفاصوليا وبعض الحبوب الأخرى ، و« أثبت » أن الوراثة صارمة . وأنها تجرى على أرقام معينة كأنها لا تتأثر بالوسط بتاتاً . وانتهيت أنا إلى الايمان بهذه الوراثة الجامدة ، وبأن الوسط لا قيمة له أصلا فى تغير السلالات وتطورها . ذلك لأنى اعتمدت على ما كان يقوله الثقات . ولست أنا ثقة مجربا فى هذه العلوم ، فيجب أن أقبل ما يقوله المجربون .

ولكن بقى التطور عندى بلا تعليل لأنى أخرجت منه تأثير الوسط .

لا ، بقى شىء واحد هو تنازع البقاء أى يجب أن نسلم بأن الأفراد من الحيوان والنبات والإنسان تتفاوت فى الكفايات ، ونحن — مع أننا نجهل المصدر لهذا التفاوت — مضطرون إلى التسليم به . إذ هو واقع يشاهد ، وإن كان هذا التسليم يشبه التسليم بالغيبيات التى لا تعلل أو بالقدر الذى لا يحتسب .

وكان لهذه العقيدة مركبات نفسية عندى تتلوها مركبات اجتماعية . ذلك أن تنازع البقاء فى الطبيعة يجب أن يكون له صداه فى مجتمعنا ، كأن نقتل العاجز العليل أو نتركه يموت دون أن نعمل على شفائه . فهؤلاء العاجزون عن التفوق يستحقون تخلفهم ، وليس من الواجب علينا أن نساعدهم على أن يرتقوا ، لأنهم إنما ولدوا وارثين لهذا العجز الذى يصلحه الوسط . ثم لماذا يبقى هؤلاء الزنوج أحياء مادامت هناك شعوب أرقى منهم ؟ وما دام إصلاحهم بإصلاح الوسط غير ممكن لأنه غير علمى ؟ فزوالهم إذن خير من بقائهم . وفى هذا القول بالوراثة تعليل علمى ، وتسويغ اجتماعى ، للاستعمار والاستغلال ، لأن الأقوياء بالوراثة هم الذين يستعمرون ويستغلون الضعفاء بالوراثة . وقد التهمت نيتشه التهاماً لأنه كان يدعو إلى إبادة الضعفاء . ومضت على سنوات كنت أحس عندما أرى إنساناً يتصدق على سائل بقرش أنه جنى على المجتمع وأفسد الأجيال القادمة . لأنه بهذا الإحسان قد استبقى الضعف واستولده .

ولكن يجب أن أعترف أنى لم أسلم كل التسليم بأن الطبيعة كافرة إلى هذا الحد . ولكنى كنت أقف متردداً ، أكاد أحبس نفسى عن السخاء والحنان والرقة العطف . وكنت أظن أنى بذلك قد أصبحت « علمياً » . وذلك أنى كنت على الدوام أهجس بالهاجس الفسلفى المنطقى ، وهو أنه ليس هناك سبب لتغير الحيوان أو النبات سوى تغير الوسط ، أى أن عادات الفرد فى حياته ، وصفاته التى اكتسبها من هذه العادات ، ترثها أعقابه ثم تتراكم وتتبلور حتى تصير صفات جسمية أو غريزة جديدة .

وأخيراً التفت إلى الهورمونات الجنسية ، تلك المركبات التى تفرزها الخصيتان فى الرجل والمبيضان فى المرأة وتؤثر فى قوام الجسم وشكله بحيث

يتغير شكل الجسم حين نقطعها (كما نرى فى الخصيان) فرأيت أنه ليس من المعقول أن تؤثر هذه الجراثيم المنوية فى أجسامنا دون أن تتأثر هى بأجسامنا .

وقرأت بعد ذلك كتاباً للأستاذ «وود جونس» عنوانه « العادة والوراثة » أوضح فيه أن العادات التى يتعودها الحيوان بل الأنسان تنتهى إلى أن تكون وراثية . وقد ذكر حقيقة كبيرة القيمة جداً تنقض ما قاله ڤيسمان من أن خلايا الجسم تنفصل من خلايا الجرثومة المنوية . وهى أن الرحم قد نزعت من بعض الفيران والأرانب فعادت إلى النمو . بل ذكر أن مثل هذا قد حدث لبعض النسوة اللاتى نزعت أرحامهن. وبذلك أثبت أن نزع الجرثومة المنوية من جسم الفأر والأرنب والمرأة ، وهى الجرثومة التى ينمو فيها الرحم هذا النزع والمحو لا يمنعان الجسم من إنماء جرثومة أخرى . وإذا كان الأمر كذلك فإن تأثر الجراثيم المنوية فى الذكر والأنثى بخلايا الجسم لا يترك مجالا للشك . ومن هنا يجب أن نسلم بأن الصفات المكتسبة ، أى العادات التى يتعودها الجسم ، تتأثر بها الجراثيم المنوية فتعود هذه العادات وراثية .

وقد ذكر ڤيسمان أنه قطع أذناب الفيران لعدة أجيال فلم يستطع إيجاد سلالة من الفيران خالية من الأذناب . ثم ضرب مثلا بالختان عند اليهود فقال : إنهم على الرغم من ممارسة هذه العادة أكثر من ثلاثة آلاف سنة لا يزال أطفالهم يولدون وهم غلف لم يتأثروا بالختان .

ولكن هذين المثلين لا يدلان على أن ڤيسمان كان بصيراً بمعنى التطور . فإن قطع أذناب الفئران وختان اليهود لا يزيد فى دلالته على مانفعل نحن عندما نقص شعور رءوسنا ، إذ ليست هذه الأعمال عادات .

ذلك أن معنى العادة أكبر من هذه الأمثلة . فالحيوان يتعود العادة

لأنها تنفعه : فهو يجد أولا متكلفاً جاهداً حتى تسهل عليه بالمرانة ، ثم تصير المرانة عادة يؤديها وهو لا يكاد يلتفت إليها . كعازف الكمان ، يبدأ متعلماً متعثراً متكلفاً ثم ينتهى بالمرانة إلى أن يعزف وهو يتحدث إليك لا يلتفت إلى الأوتار .

وهكذا الشأن فى الزرافة . حين كانت قصيرة العنق تمده إلى الأغصان فتشد عضلاته ، أى تمطها . ثم تكرر هذا بالمرانة حتى صارت العضلات تطول بالوراثة . وهذا هو الشأن فى ثفنات الجمل ، أى تلك الأجزاء المتجلدة الخشنة التى تلاصق الرمل عندما يبرك ، فإننا نعرف أن أقدامنا تتجلد وتخشن عندما نمشى على سطح خشن ، أو عندما يضيق علينا الحذاء . والإخشيشان فى ثفنة الجمل هو عادة نشأت من مقاومة الجسم للرمل الخشن ، ثم صارت بعد ذلك وراثية . بل هذا هو الشأن فى عنق الجمل الذى يمده كى يصل إلى أعشاب الأرض .

فالزرافة والجمل احتاج كلاهما إلى خواص مكتسبة ، صارت بعد ذلك موروثة ، لأنها نافعة . أما قطع ذنب الفأر ، وختان اليهود ، وقص شعورنا ، فليس منها أية منفعة لنا ولسنا نجهد فى تعودها . ولذلك ليس هناك ما يدعو إلى أن تكون وراثية .

* * *

ثم عدت إلى قواعد متدل فى الوراثة فوجدت أنها ليست محكمة ، أى أى ليست علمية ، حتى أصبح المتدليون أنفسهم يقولون إن هناك شذوذاً فى بعض الصفات الموروثة . وهذا كلام لا يستطيع الذهن العلمى أن يسيغه لأن القاعدة العلمية لا تتسع لأقل الشذوذ .

ثم انظر إلى النبات الذى استغله الإنسان لغذائه كالقمح مثلا ، فإنه إنما نشأ فى بقعة صغيرة فى الأصل ، ولكنه يزرع الآن فى الأقاليم

الثلجية التى تتاخم القطب الشمالى ، وفى الأقاليم الحارة بأفريقيا . وليس لهذا من سبب إلا أن القمح قد تعود مختلف الأقاليم التى زرعه الإنسان فيها ، وأورث عاداته ، أى صفاته المكتسبة ، لسلالاته المختلفة .

وهكذا الشأن فى البقر الذى يعيش فى السودان الحار ، وفى نروج الباردة ، مع أن الأسد لا يعيش إلا فى أواسط أفريقية لا يتجاوزها . ولو كان الأسد مدجنا كالبقر ، ينقله الإنسان معه إلى مهاجره البعيدة ، لكان قد تعود المناخ البارد وعاش فى نروج كما يعيش الآن فى أفريقيا .

وحيوان اليابسة الذى نزل إلى البحار مثل : القيطس والفقمة والدولفين يبين بوضوح كيف أن الوسط قد غيره ، وكيف أن سلائل هذا الحيوان قد ورثت التغير . بل إن هناك إمارات تدل على أن كفاح الحيوان للأمواج قد غير فى وضعه التشريحى .

مثال ذلك أننا عندما نسبح يكون همنا رفع الرأس حتى لانختنق بالماء . وهذا الرفع يجعل العنق مشدوداً من الأمام منثنياً إلى الخلف ، فتندفع فقاره إلى الأمام فى العنق . وهذا هو مانراه إلى الآن فى الفقمة ، فإن فقارها أقرب إلى نحرها منها إلى قفاها .

وقد كان « بوربانك » الأمريكى يطعم الأشجار بغصون من أشجار أخرى فكان يجد الفواكه التى تنشأ على هذه الغصون تكتسب صفات جديدة من الشجرة الظئر أى الأم ، ثم تورث سلائلها هذه الصفات . مع أن الغصن لم يأخذ من الشجرة سوى الغذاء ، وهو بعض الوسط . وهذا الذى حققه بوربانك قد حققه أيضاً « ليسنكو » على أبعاد كبيرة . الغصن يؤثر فى الشجرة الظئر ، والشجرة الظئر تؤثر فى الغصن .

وهذا الفهم الجديد بشأن الوراثة والوسط قد عاد فأحدث لى مركبات نفسية واجتماعية أخرى . وأكسبنى فهما آخر للتطور . وهو أن داروين

قد أخطأ خطأ فادحاً عندما زعم أن «تنازع البقاء» هو كل شيء أو يكاد يكون كذلك . وإن كان فهمه لتنازع البقاء ليس ساذجاً أو ليس محض القوة والعداوة كما يتوهم القارئ . وشرعت أبصر أن التعاون فى الطبيعة أكبر أثراً من التنازع . بل لا يكاد يكون هناك تنازع فى عالم الحيوان بالمعنى البشرى الذى نفهمه من هذه الكلمة . فالأسد لا يقتل الأسد ، والخروف لا يقتل الخروف . وقد يكون هناك صراع دموى بشأن الأنثى ، ولكنه لا ينتهى بالموت فى كل حال . ثم هو صراع قصير الأجل . أما الإنسان فيقتل الإنسان بالملايين ، لا بمحض طبيعته ولكن باتجاه حضارته ، أو بما نشأ عليه من عواطف اجتماعية .

ونحن نخطئ خطأ كبيراً حين ننقل هذا المعنى المتوحش لتنازع البقاء من مجتمعنا إلى الحيوان فى الغابة ، لأن الطبيعة ليست كما قال «هكسلى» أو غيره وهو متأثر بداروين : « حمراء بين الناب والمخلب » .

وهذا الفهم الجديد للتطور يحملنا على الإكبار من شأن الوسط البشرى وضرورة ترقيته حضارياً وثقافياً ، لأن العادات التى يتعودها الإنسان بكفاحه لمصاعب الوسط سوف تنتقل كما لو كانت غرائز إلى الأجيال القادمة . وليس ما نسميه غرائز طبيعية سوى عادات تباورت بتعاقب الأجيال .

والدلالة الأخلاقية لهذا النظر الجديد هى أننا إذا تركنا الناس أو بعض الفئات تعيش فى عادات سيئة ، فإننا سوف نرى السوء لا يقتصر على الجيل القائم ، بل ينتقل إلى الأجيال القادمة بالوراثة .

والوراثة فى جمودها الذى اعتقده ڤيسمان تشبه القدر ، لأننا نعجز عن تغييرها . والإيمان بها يدعو إلى التشاؤم وإلى اليأس من إصلاح الطبيعة البشرية بغير الوسائل الإنتاجية التى لا تتفق دواماً وما نفهمه من العدالة والانسانية . وقد كانت الوراثة هى المركب السيكلوجى السيئ الذى ختم

على عقل « لومبروزو » وجعله يقول إن إصلاح المجرم غير ممكن لأنه يرث النزعة الإجرامية .

وإنى عندما أقلب صفحات ذاكرتى أجد مركبات ذهنية كبيرة انتفعت بها . ولكن المركبات التى نشأت فى ذهنى من الإيمان بالوراثة قد أفسدت تفكيرى نحو أربعين سنة . بل أفسدت أخلاقى وجعلتنى أتشاءم كثيراً .

أما إيمانى بالوسط فقد أعاد إلى اتزانى الذهنى والأخلاقى وملأنى تفاؤلا بمستقبل البشر .

هذه هى قصة الكتاب الذى أفسد ذهنى . ولكن المناخ الذهنى فى بداية هذا القرن كان يهيئ للإيمان بالوراثة ويؤيدها .

هنريك إبسن . . .
داعية الشخصية

هنريك إبسن هو داعية الاستقلال الروحى للإنسان عامة وللمرأة خاصة . وقد ألف درامته « لعبة البيت » فى دعوة المرأة الأوربية إلى أن تستقل . وتنشد الآفاق ، وتجرب التجارب . وتختبر الدنيا ، وتربى نفسها . بدلا من أن تعيش خلف الرجل يكسب حولها ويحوطها برعايته ويدللها فى البيت ويقصر حياتها على الزواج والأمومة .

والاتجاه القديم للمرأة . سواء فى الشرق أو فى الغرب ، كان ينظر إليها باعتبار أنها تابعة للرجل . وأنها خلقت للبيت . وفى أمم الشرق القديمة بولغ فى هذا الاتجاه حتى انتهى إلى أن المرأة أنثى فقط تزود الرجل بلذاته الجنسية . وفى هذا قال شاعر عربى :

مالنساء وللخطابة والقراءة والكتابة

هذا لنا ولهن منا .....

ولم يكن العرب منفردين فى هذا النظر فإن أوربا على الرغم من المظاهر الخادعة كانت تنظر أيضاً إلى المرأة هذه النظرة فى القرون الوسطى ، ولكن أوربا كانت تمتاز بميزة كبرى هى أنها لم تفصل قط بين الجنسين فى المجتمع ، ولم تعرف الحجاب إلا فى أيام الإغريق . ومع ذلك لم يكن هذا الحجاب الإغريقى يغلق الأبواب إغلاقاً محكماً كما كانت الحال عندنا أيام القرون الوسطى .

ولكن مظهر الحرية الأوربية كان خلابا خادعاً أكثر مما كان واقعياً حقيقياً إلى بداية القرن التاسع عشر . فإن كثيراً من الأمم الأوربية كان يحرم المرأة الميراث ، كما كان يحرمها التعلم فى الجامعات . ولذلك بقيت محرومة من الاحتراف والاستقلال والكسب بممارسة الطب أو الهندسة أو سائر العلوم والفنون .

ولكن الضمير الأوربى كان فى بداية القرن التاسع عشر قد تنبه إلى وجدان جديد هو استقلال العقل البشرى وطرح التقاليد بفصل الدين من الدولة . كما أن الحركة الصناعية كانت قد جذبت آلافاً وملايين العمال الزراعيين من الريف إلى المدينة . والمناخ الذهنى فى المدن هو مناخ الحرية والاستقلال والتساؤل والشك . ولذلك وجدت الأفكار التحريرية تربة خصبة فى المصانع والمدن . وقد جذبت الصناعة أيضاً عدداً كبيراً من النساء إلى المصنع . ووجدت المرأة فى هذه المصانع جواً منعشاً بعث فيها الإقدام والاستقلال .

واحتاج هذا التطور إلى ألسنة تنطق وتعبر فى بلاغة الأديب وقوة المنطق ونظريات الفكر . فظهرت قصة « مدام بوڤارى » للكاتب الفرنسى

چوستاف فلوبير ، كما ظهر كتاب ستورات ميل « إخضاع المرأة » ، ومدام بوڤارى قصة امرأة تزوجت أحد الأطباء فى الريف ثم وجدت الحياة دون نشاطها وآمالها فحطمت ما تعلمته من أخلاق واندفعت فى تيار من الشهوات . قضى عليها فى النهاية فانتحرت . وكأن المؤلف يقول لنا إن حال المرأة الأوربية سيىء ، وإننا لا نفتح لها أبواب الرقى ، ولذلك تنزلق إلى مهاوى الشهوة الجنسية كى تخفف من سأم العيش المبتذل بين جدران المنزل . وكأنه يقول أيضاً : افتحوا أبواب العمل والنشاط الاجتماعيين للمرأة .

أما كتاب « ستوارت ميل » فهو تاريخ لاستبداد الرجل بالمرأة ، وأن هذا الا ستبداد لا يضر المرأة وحدها ويعطل كفايتها ويحول دون رقيها باعتبارها إنساناً ، وإنما هو يعطل المجتمع كله نساء ورجالا .

وجاء إبسن حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، فتبلورت فيه هذه الآراء وأخرجها درامة موجعة سامية اهتزت منها المجتمعات الأوربية وأصبحت « نورا » بطلة هذه الدرامة قدوة المرأة الناهضة ومشعلا تهتدى بنوره .

وقد عاش إبسن فيما بين عامى ١٨٢٨ و ١٩٠٦ ، وقد غير أوربا الأدبية وأحالها إلى الآراء العصرية ، إذ غرس فيها بذرة « البشرية الدينية » كما أبدل أخلاقها من تراث التقاليد إلى القيم البشرية التى توزن بميزان العقل . ودعا إلى الا ستقلال النفسى ، وإلى ضرورة الجد فى الحياة ، بحيث نربى أنفسنا ونكون شخصياتنا أحراراً مفكرين مكافحين مستقلين .

وإبسن نروجى نشأ فى بيت ريفى ، ولكنه قضى صباه خادماً أو مساعداً فى صيدلية . ولم يكن شىء يفتح العين وينبه العقل إلى الأكاذيب الاجتماعية مثل الخدمة فى صيدلية وتركيب العقاقير فيما بين عامى

١٨٠٠ و ١٨٥٠ ، لأن الصيدليات فى تلك السنين كانت تعيش بما يقارب النصب ، إذ لم تكن عقاقيرها سوى مواد غريبة الأسماء معدومة النفع ولم يكن المريض ينتفع منها بأكثر من الوهم .

ولا بد أن إبسن قد تعلم تحطيم الأصنام من هذه المرانة الأولى فى الصيدليات . ثم احترف الصحافة فى « كرستيانيا » . والتحق بالمسرح فى « بيرجن » . وبقى متصلا بالمسرح للإدارة ولإخراج والتأليف مدة طويلة فى كلتا هاتين المدينتين : بيرجن وكرستيانيا التى كانت وقتئذ عاصمة نروج .

وهذا الاتصال بالمسرح أكسبه بصيرة فى الفن كما أكسبه رؤيا فى التأليف . فإن دراماته غاية فى الدقة الفنية . وكثير منها يجرى على الأسس الإغريقية للفن المسرحى وهى أن الدرامة لا تزيد على أن تكون جلسة فى مكان وزمان معينين لا يتغيران من الفصل الأول إلى الفصل الأخير .

وقد نقل الدرامة الرومانتية إلى الواقعية ، وجعلها اجتماعية تعالج المشكلات التى يعانيها المجتمع . ففى إحدى الدرامات يعالج مرض السفلس وعواقبه الوخيمة ، وفى أخرى يعالج المسيحية والوثنية ، وفى أخرى يعالج استقلال الشخصية إلخ . .

ولكنه كان فى كل ذلك شاعراً ، يرى الرؤيا فتمتد نظرته إلى الآفاق البعيدة . وفيما بين عامى ١٨٧٠ و ١٨٩٠ كان يعيش فى ألمانيا مستوحداً لا يكاد يعرف الأصدقاء . وكان يخرج درامة واحدة كل سنتين تقريباً . وقد أوجد مسرحاً جديداً فى أوربا . وعندما نقرأ « برنارد شو » نجد أن إبسن مضمر فيه . فقد ألف « شو » كتيباً فى الدفاع عن إبسن وأسلوبه الواقعى . وكما أن إبسن كان يرى رؤيا الشاعر ، فإنه أيضاً كان يلترسم

الحقائق . وهذا هو شأن برنارد شو .

أما أفكاره وفلسفته فتتلخص فى قيمة الشخصية البشرية وضرورة استقلالها وتربيتها ؛ وأن هذا هو الواجب الأول على الرجل والمرأة . ومن هذه البؤرة تتشعع واجبات أخرى : هى أن نأخذ أنفسنا بالجد وأن نعتمد على العقل ونحيا الحياة الشريفة الفنية الراقية . وألا نخضع لأطياف الماضى وأشباحه . وقد كتب إلى أخته خطاباً قال فيه : « أحب أن أرى كل شىء فى وضوح وصفاء ، ثم أحب بعد ذلك أن أموت » .

وهو يعنى بهذه الكلمة الإيمائية أنه يجب أن يرى المشكلات الاجتماعية مكشوفة ، واضحة ، خالية من المركبات التاريخية والتقليدية التى تحول دون رؤيتها على حقيقتها . أى يجب على الأديب أن يكون واقعياً ، يرى الواقع الملموس ثم يبنى خياله على أساسه ، ويرى رؤياه من خلال عدسته .

وأبعد ما كان يبتعد عنه إبسن هو البرج العاجى الذى يعيش فيه الأديب السخيف ، يحلم ويتخيل فى عزلة عن المجتمع ومشكلاته . كأنه الأدب لذة موسيقية فقط ، وكأنه يجب أن يترفع عن معالجة الجوع والبغاء والمرض والظلم والاستبداد .

« الشخصية البشرية » هى إنجيل إبسن .

وإذن لم يكن مفر من أن يسأل عن شخصية المرأة . وهل الحضارة فى عصره كانت تهيىء لها أن تكون إنساناً راقياً مجداً ؛ لها أهداف شريفة تعيش من أجلها وتحس أنها تؤدى رسالتها فى الحياة ؛ كما أن لها أسلوباً فلسفياً تتخذه فى عيشها ، أم لا ؟

هذه هى المشكلة التى عالجها إبسن فى درامة « بيت الدمية » أو « لعبة البيت » . واللعبة هنا هى الدمية التى تلعب بها الطفلة وهو يرمى من هذه التسمية إلى أن المرأة الأوربية (حوالى عام ١٨٧٠) هى لعبة الرجل عام يقومها ويقدرها بما تتسم به من سذاجة وجهل . وهى تولد فى بيت

أبويها فتعامل منهما كما لو كانت لعبة تزخرف بالملابس الزاهية وتدرب على إنكار نفسها ، فلا تتحدث عما يتحدث عنه الرجال فضلا عن أن تمارس أعمالهم . فتنشأ محدودة الفهم قليلة المعارف قد سدت فى وجهها أبواب العمل الكاسب الذى يعمله الرجال ويكسبون منه أرزاقهم كما يكونون به شخصياتهم .

و« نورا » هى هذه الفتاة ، تترك بيت أبويها إلى بيت زوجها فى جمال وبراءة وطهارة وسذاجة . لها وجه كأنه قد صنع من وريقات الورد وكأنه قد خلق للقبلات فقط . وجسم قد شيدته الطبيعة كأنه يمثل النبل والروعة . وهى تتحدث بلغة قد هذبت كلماتها ، فلا تنطق بما ينطق به الرجال . أما العقل فهو العقل الساذج الذى لم يختبر الدنيا ولم تمر به الأخطاء والأخطار فيتعلم ويتدرب . ويتلقاها زوجها فيعاملها كما كان يعاملها أبواها . فهى حتى عندما تبلغ الأربعين أو الخمسين ستبقى طفلة .

وإبسن يثور على هذا الوضع ويتساءل : لماذا تبقين طفلة ؟ أين شخصيتك وذكاؤك ؟ ولماذا تحرمين اختبارات هذه الدنيا ؟

وتجرى الدرامة فى سياق التمثيل الذى يوضح لنا أن المرأة لن تكون نحو ما نحب أن تكون المرأة عليه . لأن كل هذه الصفات تعنى فى النهاية إنساناً إلا عندما ترفع نفسها من الأنثوية . وأن هذا لن يكون إلا عندما تأخذ نفسها مأخذ الجد ، فتستقل بشخصيتها وتتعلم وتختبر . ونحن الرجال لا نتعلم ونرتفع إلى المقام الاجتماعى أو المكانة الذهنية أو الفهم المحيط ، كما لا تتكون لنا شخصية ، إلا لأننا نختلط بالمجتمع ونعالج الخطأ ونقع حتى فى الخطر . وليس هناك رجل يفخر بأنه ساذج أو طاهر أو برىء على نحو ما نحب أن تكون المرأة عليه . لأن كل هذه الصفات تعنى فى النهاية أننا نحب جهل المرأة وإبقاءها طفلة أو « لعبة » كما يقول إبسن .

ونورا بعد أن تتكشف لها حالها هذه تترك بيت الزوجية ، تترك

الزوج والأطفال : بعد أن تشرح لزوجها أنها طفلة ؛ وأنها لن تقبل أن تعيش سائر حياتها فى هذه الطفولة ، وأنها ستخرج إلى الدنيا كى تعامل وتختبر حتى تنجز لنفسها وعد حياتها ، وحتى تؤدى حق إنسانيتها ، بأن تبنى شخصيتها بالمعرفة والاختبار والدرس مهما ارتكبت من أخطاء أو وقعت فى أخطار . ذلك لأن رسالة الإنسان فى هذه الدنيا أن يعرف الدنيا ولا يحاط بسياج من الواجبات الاجتماعية تحول دون فهمه أو بنائه لشخصيته .

وقد أحدثت هذه الدرامة ضجة كبرى فى العالم الأوربى لأنها صدمت العقائد والتقاليد . ولكن الضجة هدأت أو انفثأت عن انتصار المرأة والتسليم بأن جمالها القديم : جمال الوجه والصدر والقامة والفخذين ، هو جمال الأنثى .

وأما جمال المرأة الجديدة فيجب أن يعلو على ذلك ، أى يجب أن ينطوى على العقل النير والشخصية الراقية التى تدربت بالتجارب والاختبارات ، وارتقت بالثقافة واشتركت فى شئون المجتمع ؛ وقد كان إبسن رؤياى المنيرة حين كنت حوالى العشرين ، أتلمس المثليات الأوربية والقيم العصرية ، وأبنى شخصيتى الذهنية . وكان مركز المرأة المصرية يحز فى صدرى كأنه خزى أبدى لولا هذه المحاولات الصغيرة العظيمة فى مثل كتابى قاسم أمين ثم ، بعد نصف قرن ، فى نشاط هدى شعراوى وسيرا نبراوى ودرية شفيق وأمينة السعيد وأمثالهن .

ونحن الشرقيين قد ورثنا تراثاً سيئاً من القرون المظلمة ، هو تراث الرق والخصيان والحجاب . وأولئك الذين يدافعون عن الحجاب ينسون خصاء الزنوج كى يتممه ، أى يتمم الحجاب ، ولعلهم يخجلون حين يذكرون ذلك .

لقد تعلمت من إبسن شرفاً جديداً لم أكن أعرفه حين تركت بلادى إلى أوربا فى عام ١٩٠٧ ، هو شرف الإنسانية التى يجب ألا يحدها حجاب

المرأة . هو شرف الزواج الذى يقوم على الاخاء والمساواة ، ليس فيه سيد وعبد . وهو شرف الأمة التى ترفع نساءها إلى مقام الوزيرات والنائبات وتفتح لهن المدارس والجامعات .

قبل خمسين سنة كنا نقعد إلى المرأة فنجد الجهل مع السذاجة ، جهل وسذاجة يبعثان الاشمئزاز الذهنى فى الرجل الناضج . ولا تزال هذه الحال باقية فى معظم أوساطنا . ولكن الدنيا تتغير ، وهى تتغير لمصلحة المرأة ورفعتها وترقيتها ، ولن ترتقى المرأة المصرية وتبلغ النضج أو الإيناع إلا عندما تختلط بمجتمعنا نحن الرجال وتمارس أعمالنا وتعب من اختباراتنا وتشترك فى الصناعة والتجارة والسياسة وتواجه الأخطاء والأخطار .

وليست عبرة « لعبة البيت » مقصورة على المرأة ، فإنها تمس الرجال إلا القليل من الناضجين . ذلك أن الرجل العادى فى كثير من تصرفاته يعيش بلا استقلال ، وليس له من الشخصية سوى الاسم . يخضع للتقاليد وينساق فى تيار العرف . وصحيح أن الدنيا تربيه وتصلب عوده وتخصب شخصيته بالاختبارات والاصطدامات التى تحرم منها المرأة . فهو يخطئ ويصيب ويتعلم ويقف على كثير من الأكاذيب الاجتماعية التى تفتح ذهنه وتنير رؤياه ، وكل هذا لانصيب المرأة منه شيئاً لأنها محبوسة بسياج أو حجاب من التقاليد .

ودعوة إبسن هنا : لتكن لكل منا شخصية ولينظر كل منا إلى الدنيا كما لو كان هو محورها ، ليس لأحد ولا لعقيدة سلطان عليه إلا ما يرى بعد التفكير الاستقلالى أنه نافع له ولمجتمعه .

إننا نطلب الحرية من القوانين والدساتير ، ولكن كل ما تستطيع هذه أن تهبنا من حقوق هو على الدوام دون ما نهب أنفسنا . لأن قيود التقاليد واصطلاحات العرف الاجتماعى تقيدنا أكثر مما تقيدنا به مظالم المستبدين التى تحاول الدساتير والقوانين محوها أو مكافحتها .

وحتى حين يستبد بنا حاكم ظالم ويستعين بالقوة المادية على تقييد حريتنا نستطيع الاحتفاظ بكرامتنا والإحساس باستقلالنا . لأننا نقاوم ونكافح استبداده وجبروته ونحن على وجدان بأننا أرقى منه . ولكن استبداد التقاليد ينغرس فى نفوسنا . ويعين مزاجنا . ويعودنا عادات ذهنية ونفسية تجعل كلا منا أسيراً . أجل ، وأسير نفسه مع ذلك . فالمرأة التى نشأت على الحجاب لا تحس هوانه كما لا تعرف جهلها . وهى لذلك لا تقاوم ولا تكافح . وكذلك شأن الرجل الذى يعيش فى أسر التقاليد وكأنها من طبيعة الأشياء التى لا تتغير . بل لا تحتاج إلى التغيير .

والفرق بينه وبين المرأة هو فرق الدرجة فقط إذ هو فى حجاب نفسى وذهنى . وهذه الدنيا هى ملك الإنسان وعلينا جميعاً رجالا ونساء أن نتعلم وننضج ولا نكون لعبة الأقدار أو لعبة المجتمع . وعلينا أن نستقل وندرس ونختبر الحقائق . وليس هذا واجب « نورا » وحدها ولا واجب النساء وحدهن وإنما هو واجب الرجال أيضاً .

ونِعْم هذا الدرس الذى علمنا إياه إبسن ؛ درس حق كل إنسان فى تقرير مصيره وتربية شخصيته .

* * *

كنت قبل سنوات أصطاف بالإسكندرية ، وكنا نقعد رجالا ونساء فى اجتماعات عائلية على الشاطئ نتجاذب الحديث . وما كان أسخف ما كانت تتحدث عنه النساء .

شئون الخدم ، وزواج هذه الآنسة أو تلك الأرملة ، وهذا الخطيب الثرى المنتظر لهذه الفتاة ، وخاتم الخطبة ، ومبلغ المهر لتلك الفتاة الأخرى . والسكنى فى الزمالك والأتومبيل الجديد عند فلان « بلك » وهذه الخياطة البارعة وذلك القماش الجديد إلخ . .

أحاديث تافهة من شخصيات تافهة . واهتمامات زائفة نشأت من حبسة البيت وحبسة النفس . فلم يكن بين هؤلاء النسوة من كانت تهتم ببحث العبرة والدلالة للطاقة الذرية ، أو لهيئة الأمم المتحدة ، أو لفلسفة برتراند سل أو للمخترعات الطبية أو لمستقبل المرأة فى الهند ومصر ، أو لمعنى الدين أو برامج المدارس . وكأنهن لم يكن يقرأن الجرائد فضلا عن الكتب .

ولكن كان فى هذا الوسط فتاتان لم تتزوجا وإنما احترفتا التمريض فى أحد المستشفيات بالقاهرة ، وكنت عندما أقعد إليهما وأتحدث أحس أنى إزاء شخصيتين عالميتين . فقد اكتسبت كل منهما نظرة عالمية أخرى غير المنزل والخدم والطبخ وأحمر الشفاه والفستان الجديد .

وقد استمعت إلى حديث إحداهما عن المرضى والأمراض ، واختلاف الناس فى استقبال الموت ، أو الحكم بالموت ، عندما يعرف المريض أن سرطاناً قديماً قد نبت وتفرع فى جوفه .

ووصفت لى إحداهما كيف رأت رجلا قبيل النزع وكيف خففت عنه .

وكنا فى سيدى بشر وهى تبعد عن الإسكندرية بنحو عشرة كيلومترات ، فاقترحنا على أن ننهض ذات صباح ونسير على الأقدام بحذاء الشاطئ إلى الإسكندرية .

وكنت أحس وأنا أتحدث إلى كل منهما أنى إزاء إنسان قد استحال إلى شخصية ناضجة تمتاز بجمال وكرامة وذكاء . وذلك لأن اختلاطهما بالمجتمع وخدمتهما له قد زاد ذكاءهما وكون شخصيتهما ، ولو أن كلا منهما كانت قد نشأت النشأة المألوفة عند غيرهن ، اللائى يعشن فى البيت وينتظرن الزوج ، ثم يتزوجن ويقصرن اهتماماتهن على اللباس والخدم وقصص الزواج والثراء ، لما كانت لها هذه الشخصية .

والذكاء ينهض على أساس طبيعى ولكنه يربى بالمجتمع . ونحن الرجال بما نمارس من اختبارات ونكابد من كسب أو خسارة ونصادف من أخطار ، بل بما نرتكب من أخطاء ، نتعلم وننمو ونزيد حكمة . والمرأة كذلك لن تكون إنساناً حكيما إلا إذا مارست جميع الأعمال التى يعملها الرجال واقتحمت ميادينهم وتعرضت للأخطار مثلهم .

وهذه الصورة الجديدة للمرأة قد لا تعجب بعض الرجال الذين يؤثرون جهل الزوجة على معرفتها وقصورها على نضجها . وهم يحسون سيطرة ويمارسون تسلطاً عليها فى هذه الحال ، ويلتذون هذه المرتبة أو الميزة العالية لهم عليها . ولكن المرأة الرشيدة يجب أن تتنبه وترفض أن تكون لعبة الرجل كما رفضت « نورا » .

ونحن الرجال نعرف أن المدرسة والجامعة لا تربياننا وإنما الذى يربينا هو هذا المجتمع الذى نختلط به ونصطدم بمشكلاته. ونحن لا نستقطر الحكمة ، وننضج النضج الفلسفى ، إلا بعد أن نخطئ ونصيب ونخسر ونكسب ، وننساق ساعة الهوى ، ثم نفيق عقبها سنين لأننا عرفنا الحقائق بالخبرة ومارسنا هذه الدنيا فى حرية واستقلال بلا خوف من سلطة أو تقاليد .

وهذه الحكمة التى نناها نحن الرجال من اختباراتنا لهذه الدنيا يجب أن تنالها المرأة بمثل الوسائل التى نتوسل نحن بها ، أى بالعمل والإنتاج والاختلاط والاستقلال والاختبار .

وهذه الصورة الجديدة التى رسمها لنا إبسن فى نورا قد تحققت فى المرأة الأمريكية إلى أبعد حد . وكذلك تحققت إلى حد ما فى المرأة الانجليزية والإسكندناوية والروسية حيث تعمل المرأة إلى جنب الرجل وتستقل بما تكسب . ولم يعد الرجل يعولها ، وقد أصبحت شخصيتها قوية جلية تواجه الدنيا فى شجاعة وتحترف الحرف التى ترقيها وتنبه ذكاءها

وتفتل عضلاتها . وهى فى كل ذلك لم تهمل مهمتها البيولوجية فى الزواج والحمل والولادة .

وقد جدت ظروف جعلت هذا الاتجاه نحو استقلال المرأة يسير بسرعة . ذلك أن وفرة الآلات الميكانيكية فى البيت الأمريكى أغنت المرأة عن العمل فى الطبخ والغسل . فزاد فراغها الذى احتاجت إلى أن تشغله بالعمل والكسب خارج البيت . ومعنى هذا أن التغير فى الإنتاج المنزلى قد أحدث تغيراً فى أخلاق المرأة . وحققت هذه الآلات الكهربائية دعوة إبسن من حيث لم يكن ينتظرها .

والمقارنة بين المرأة الأمريكية التى تعمل فى المصانع والمتاجر والمكاتب ، وتستقل بعواطفها ، وترسم بيدها خارطة حياتها ، وتقرأ وتناقش وتكسب وتخسر وتصيب وتخطئ ، وقد تكونت لها شخصية رصينة بصيرة قوية من هذه الحياة ، نقول إن المقارنة بينها وبين المرأة الأوربية فى الأقطار الجنوبية مثل إسبانيا وإيطاليا ويونان حيث لايزال المطبخ يجرى على تقاليده وحيث يستأثر المطبخ والغسل بمعظم الوقت ، وحيث يسود الرجل المرأة وله عليها الكلمة العليا ، بحيث يقرر لها ، أو يكاد يقرر لها ، مصيرها — هذه المقارنة توضح لنا سمو المرأة الأمريكية الجديدة ، باعتبارها إنساناً عاقلا مستقلا ، على هذه المرأة الأوربية الجنوبية لا التى تزال مقيدة بالتقاليد .

إن العمل والكسب والاختبار والإصابة والخطأ والاختلاط بالمجتمع قد ربى المرأة الأمريكية ، فى حين أن الانزواء فى البيت قد قيد النمو الذهنى للمرأة الأوربية الجنوبية . ولا نذكر المرأة الشرقية .

نيتشه
أو فتنة الشباب

اثنان انخدعت بهما سنوات كثيرة . أولهما فيسمان الذى غرس فى ذهنى أن الصفات المكتسبة لا تورث . وإحساسى الآن نحو هذا الرجل هو البغض . أما الثانى فهو نيتشه الذى خدعنى ؛ فافتتنت به سنوات ، قبل أن أتخلص منه . وإحساسى نحوه هو الحب .

وقد عرفت نيتشه فى عام ١٩٠٩ وكنت منغمساً فى نظرية التطور .

وكان « تنازع البقاء » و « بقاء الأصلح » و « الطبيعة حمراء بين الناب والمخلب » من المعانى التى أقبلها فى صمت وتسليم . وهذه المعانى جميعها تنقض الديانات التى تقول بالرحمة والتعاون والإخاء البشرى وحماية الضعيف .

وهبط على نيتشه كما لو كان وحياً أو كشفاً . نثر ساحر كأنه أبيات

من الشعر . وخيال يرتفع إلى آفاق المستقبل . وجرأة تكاد تجمد ذهن الناشئ رهبة وجزعاً أو تنفضه حماسة وطرباً . ثم إلى ذلك فلسفة تعلو على برود المنطق ، وتأخذ بحماسة الإيمان وغلواء التفاؤل . وفى كل ذلك ارتباط بالتطور .. « إنى أعلمكم علم السبرمان ، أو الإنسان الأعلى . ما هو القرد إزاء الإنسان ؟ أضحوكة أو خزى . . وكذلك يجب أن يكون الإنسان إزاء السبرمان ، أضحوكة أو خزى ؟ . . إنما الإنسان معبر أو جسر يصل بين القرد والسبرمان . سوف يكون السبرمان ازدهاراً وخيراً وتعبيراً نهائياً للأرض . أستحلفكم أن تكونوا أمناء للأرض. وأن تكفوا عن التطلع إلى النجوم تنشدون منها آلاماً ومكافآت . إن عليكم أن تضحوا بأنفسكم للأرض حتى يتاح لها أن تنجب يوماً ما السبرمان . .الإنسان شىء يعلى عليه ، فماذا فعلتم كى تعلوا عليه ؟ »

كلمات رائعة كان وقعها فى نفسى ، وأنا حوالى العشرين ، وحياً أو كشفاً ، فتعلقت به ، وكتبت عنه مقالا فى مجلة المقتطف فى عام ١٩٠٩ بعنوان « نيتشه وابن الإنسان » .

وقد كانت نظرية التطور جديدة فى أوربا ، وكانت تكشف عن صورة وحشية للتطور . وقد استلهم منها أعداء المسيحية برهاناً جديداً يقيمونه لنقضها ، وكانوا قبل ذلك يقنعون بالمقارنات التاريخية بين الأناجيل يوضحون زيف الأساطير فى الدين . ولم يكن يجرؤ أحدهم على القول بأن الأخلاق المسيحية ليست هى الأخلاق المثلى أو أنها تؤخر البشرية أو أن هناك ما هو أرقى منها . ولكن نيتشه لم يبال الأساطير أو المعجزات : إذ عمد إلى دعوة المسيحية التى امتازت بها ، وهى الرحمة وحب المساكين والضعفاء ، فحمل عليها ووجد فيها ميداناً لبحث القيم والأوزان التى يعيش بها الأوربيون المسيحيون . فقال إن هذه الأخلاق تعارض بقاء الأقوياء « الصقور » وتصدهم عن حقهم الذى تنطق به الطبيعة وهو

أن الصقر يجب أن يأكل العصفور . فإن بين البشر عصافير ضعفاء يستحقون الفناء ؛ كما أن بينهم صقوراً قوية تستحق البقاء . وهو فى هذا المنطق لا يذكر داروين . مع أن القارئ لمؤلفاته لا يتمالك أن يذكر نظرية التطور .

ونيتشه أديب من الطراز الأول . وهو أيضاً لغوى وفيلسوف . ومن هنا سحره الذى لا يقاوم . فإنه يفكر تفكير الفيلسوف ويكتب بلغة الأديب . وهو يرجع بحثه إلى التاريخ .

فإن الرومانيين القدماء كانوا قبل أن يعتنقوا المسيحية يتخذون السيف شعاراً والقوة مذهباً ، وكانت أخلاقهم تنزع إلى البطولة كما يتضح من كلمة Virtue ومعناها الفضيلة . فإنها مشتقة من كلمة Vir ومعناها الرجولة ، فالفضية كانت عند الرومانيين صفة الرجولة أو أهم خصائصها ، ولكن المسيحية جاءت فى زعم نيتشه فاستبدلت بالرجولة والبطولة ضعفاً زرياً نرى نتائجه فى شعوب أوربا الحاضرة حيث تتفشى الأمراض وتكاد تكون خالدة لأننا نحمى كل مريض ونعنى بعلاجه .

ولد نيتشه فى عام ١٨٤٤ ومات فى عام ١٩٠٠ وكان أبوه قسيساً ، كما كانت أمه امرأة متدينة . وقد هيئ لأن يدرس فى كلية دينية كى يكون قسيساً ، ولكنه التفت إلى اللغات فبرع فيها . ومن تحليل الكلمات القديمة استطاع أن يحلل التطور الأخلاقى فى أوربا . ونستطيع أن نلخص فلسفته بأنها ترمى إلى أن تجعل غاية الحياة خدمة الأقلية من الشخصيات السامية ، وليس خدمة الأكثرية أو سواد الأمة . وهو هنا بالطبع غير ديمقراطى ، بل عدو الديموقراطية .

وهو بكلمة أخرى يطلب أخلاق السادة بدلا من أخلاق « القطيع » كما يصف سواد الشعب .

ومما ينبهنا هنا أن هتلر كان كبير الإعجاب به ؛ وقد أهدى مجموعة فاخرة من مؤلفاته إلى موسولينى . وكلاهما ، أى هتلر وموسولينى ، كان عدوًا للديمقراطية . ولكننا لا نعنى من هذا القول أن نيتشه يحمل قارئه على الاعتقاد بأن الفاشية نظام حسن ، فإن فيه أحياناً من سمو الفكرة ونضج الحكمة مايجعلنا نشمئز من المقارنة بينه وبين هذين الطاغيتين .

ونحن نضحك منه حين يقول : « الملحادون والمسيحيون ، والبقر والنساء ، والإنجليز وسائر الديمقراطيين ، ينتمون إلى أصل واحد » .

ولكننا نحس بروعة أفكاره حين يقول : « الزواج هو اجتماع إرادتين لإيجاد شخص ثالث أعلى من الزوجين » .

وقوله : « لا يجب فقط أن نتناسل إنما يجب أن نتناسل إلى أعلى » .

وهذا أحسن ما قيل عن الزواج . فإنه رفعه من معانى السعادة واللذة إلى معانى التطور والتضحية ، أى يجب أن يدبر الزواج بحيث يؤدى إلى الرقى البيولوجى وإيجاد السبرمان وزيادة الذكاء والصحة والقوة .

وحملة نيتشه على المسيحية تتساوق مع فلسفته . فإنه يجد فيها دعوة إلى التواضع والخضوع والطيبة ، فى حين هو يطلب الارتفاع والكبرياء والقسوة . أو يمكن أن يقال إن المسيحية تنشد مجتمعاً أفقيًا يتساوى فيه الجميع ، بل يمنع التفوق لبعض أفراده ويعيد الجميع إلى حال سواء من التوسط . ولكن نيتشه ينشد مجتمعاً عموديًا يتيح للعظماء أن يتفوقوا ويسودوا .

وعنده أن « الشرف » وثنى رومانى أرستقراطى . أما « الضمير » فسيحى يهودى ديمقراطى . وأن أوربا لهذا السبب مهددة ببوذية جديدة تنكر فيها الحياة . ومن أقواله :

« الغريزة هى أسمى أنواع الذكاء التى اكتشفت إلى الآن » .

« ونصيحتى إليكم أيها الإخوان هى : كونوا قساة صلاباً » .

« علينا أن نفر من أقرب الناس إلينا : من جيراننا ؛ ونحب أبعد الناس عنا » .

« تفاوت الحقوق هو الشرط الأساسى لوجود الحقوق » .

« لصغار الناس صغار الفضائل ، ولكننى لا أعرف ما حاجتنا إلى صغار الفضائل » .

« ليس للأنانية قيمة فى الأرض أو فى السماء . وجميع المسائل العظيمة تحتاج إلى حب عظيم » .

« الانتقام الصغير أكثر إنسانية من العفو عن الانتقام » .

« ما هو الشىء الحسن ؟ هو كل ما يزيد الإحساس بالقوة ، أى إرادة القوة ، أى القوة ذاتها فى الإنسان » .

« وما هو الشىء السيئ ؟ هو كل ما ينشأ من الضعف » .

« عيشوا فى خطر ، شيدوا مدنكم إلى جنب فيزوف . ابعثوا بسفنكم إلى بحار مجهولة » .

« لأنك جعلت الخطر حرفتك ، لذلك أدفنك بيدى » .

ومن هذه المختارات الموجزة نجد أن نيتشه لا يقدم لنا فلسفة ومنطقاً بمقدار ما يقدم لنا أشعاراً أو مذهباً وعقيدة خلاصتهما أن نتخلص من الضعف ونقسو على أنفسنا وعلى غيرنا . ومع أننا نحس من اتجاهاته الفكرية أنه على التصاق واعتناق لمذهب داروين فى التطور البيولوجى ، فإن الميزة واضحة فى أنه لا يطلب سبرماناً للمستقبل بمقدار ما يطلب منا أن نكون نحن على سمو وارتفاع فوق العامة ، وعلى مقاطعة للأخلاق المسيحية .

وإنسان المستقبل (السبرمان) الذى يرتفع فوقنا بمقدار مانرتفع

نحن فوق القردة ، لا يحتاج لإيجاده إلى القسوة الأخلاقية بمقدار ما يحتاج إلى التنظيم الاجتماعى للزواج والتناسل . وهذا يتم بالتعاون والرفق أكثر مما يتم بالتنازع والقسوة .

ومنطق المسيحية هو المنطق الإنسانى بالتعاون ، ومنطق نيتشه هو المنطق الفطرى بالتنازع .

وقسوة المبادئ الإمبراطورية ، والقول بأن هناك سلالات بشرية لها حق السيادة على الشعوب السوداء أو السمراء أو الصفراء ، هما أبعد ما يكونان عن تفكير نيتشه عندما نتأمل ونتعمق مؤلفاته . ولكن ليس هناك شك أن الدراسة السطحية قد عملت لتأييد هذه الاتجاهات ، كما يتضح من إكبار النازيين الألمان والفاشيين الإيطاليين لمؤلفاته لاعتقادهم أنه يؤيدهم .

* * *

والقارئ لنيتشه فى حملته على المسيح يحس وجاهة الرأى الذى يقول به « أندريه جيد » ، وهو أن نيتشه يغار غيرة شخصية من المسيح . فإن كلماته تحمل أحياناً بذاء أكثر مما تحمل نقداً . وهو فى كتابه « هذا ما قال زرادشت » يقحم الإنجيل ويكذب كلمات المسيح . بل نحس ، ونحن نقرأ هذا الكتاب ، أنه يقلب العبرة والدلالة من كلمات المسيح ويضع مكانها كلمات أخرى لها نقيض الأخلاق المسيحية . ثم يزيد على هذا فيحاكى أسلوب الإنجيل . فكما أن المسيح كان يجادل الفريسيين ويناقضهم ، كذلك نيتشه قد جاء كى يجادل « الطيبين العادلين . . . لأن عقولهم مقيدة فى سجون ضمائرهم » . ثم يخاطب تلاميذه بما يشابه أو يطابق خطبة الجبل حين خاطب المسيح تلاميذه ، ولكن مع الفرق فى العبرة والدلالة . إذ حيث يدعو المسيح إلى الرحمة والحنان والإخاء البشرى فى

أبوة الله ، يدعو نيتشه إلى القسوة وضرورة التفاوت . ولنيتشه كما للمسيح خلوته واستيحاؤه وله أيضاً « العشاء الأخير » الذى يقول عنه بلسان زرادشت « هذا العشاء لتذكرونى » .

ثم تزداد الغيرة إلى حد الجنون فيقول : « ما هى أعظم الخطايا على الأرض إلى يومنا هذا ؟ أليست هى قول ذلك القائل : ويل لكم أيتها الذين تضحكون فى هذا العالم » . وهو هنا يشير إلى المسيح ثم يحاكى ويناقض بما فى قوله على لسان زرادشت :

« صحيح أنكم إذا لم تصيروا كالأطفال الصغار فإنكم لن تدخلوا ملكوت السموات (وهنا يشير زرادشت إلى السماء) ولكننا لا نرغب فى أن ندخل هذا الملكوت لأننا قد صرنا رجالا . ولهذا نحن ننشد ملكوت الأرض » .

بل يتحدث فى جنون ، فيأسف على أن المسيح لم يعمر طويلا . ويقول إنه لو كان قد عمر طويلا لنقض آراءه التى كان قد قال بها ؛ ثم يقول :

« حقاً لقد مات هذا العبرانى . .

« لم يكن قد عرف فى حياته سوى دموع العبرانى وأحزانه ، مع كراهة الطيبين والعادلين ، هذا المسيح العبرانى ، ثم إذا ببيداء الموت تطويه . . .

« ولم يعش فى البيداء بعيداً عن الطيبين والعادلين ، لعله لو كان قد فعل لكان قد عرف كيف يعيش . وكان عندئذ يحب الأرض والحياة أيضاً . .

« ثقوا يا إخوانى أنه مات دون أن يعمل ، ولو أنه كان قد عاش مثلما عشت ، وعمر مثلما عمرت ، لنقض ما كزن قد قاله ، أجل : إنه كان على شرف يحمله على أن ينقد ما كان قد قاله .

« ولكنه لم ينضج . وحبه إنما كان حب الشباب الذى ينقصه النضج . وهذا هو علة كراهته للأرض والحياة » .

* * *

إن كثيراً من أقوال نيتشه يوهم الهوس إن لم نقل الجنون . وربما مما لا شك فيه أنه قضى نحو عشرين سنة وهو فى جنون يكاد يكون مطبقاً ، إذ كان فى الدور الأخير من السفلس . ولعل هذا الجنون كان قد تسلل وئيداً قبل أن يطبق عليه . ولعل أيضا بعض هذيانه يعزى إلى هذا المرض .

على أن كثيراً من « الهذيان » لا يزيد أن يكون إسرافاً وتوتراً فى التعبير .

ولكن ليس من الصواب أن نحذف نيتشه بدعوى الهوى أو الهذيان أو الجنون ، فإنه قد عرض لقضية إنسانية واضحة يجب على كل فيلسوف أن يواجهها فى صراحة وأن ينتهى فيها إلى حكم فاصل . وليس ثم مفر من هذه المواجهة .

وهذه القضية هى أن مصلحة البشر وارتقاء الإنسان يقتضيان محاربة الضعف والمرض والنقص كما يقتضيان تشجيع وتأييد الصفات العالية كالصحة والقوة والذكاء فما دام هذا هو الهدف فهل من الخير للناس أن يؤسسوا المستشفيات لمعالجة المرضى ؟ وهل من الخير أن يباح الزواج للأبله والمغفل والأشوه ؟ ثم ما دمنا نؤمن بأننا كنا على مستوى منخفض من الذكاء قبل مليون سنة ، حين كنا والحيوان سواء ، فلماذا لا نعمل فى اطراد التطور كى نزداد صحة وقوة وذكاء ؟

لقد كنا فى الغابة نعيش بالفطرة ، وكانت الطبيعة قاسية لا ترحم ولا تعرف دواء لمعالجة المرضى ، وكان الموت يفشو ويفتك بالآلاف ولا

يبقى منا غير الصالح القوى القادر على المشقات . ثم جاءت الحضارة فجمعت الضعيف إلى جنب القوى . وسادتنا أخلاق الرحمة والإخاء والتصدق ، فعاش بهذه الأخلاق ناس ما كانوا ليستطيعوا العيش فى الغابة. ثم هم مع ذلك يتزاحمون و يتناسلون فيجعلون المرض والضعف والدمامة مخلدة فى العناصر البشرية .

وصيحة نيتشه هنا : عودوا إلى شريعة الغابة ، عودوا إلى تنازع البقاء، هى صيحة تستحق النظر والتأمل . ولا يعنى فيها القول بأنه كان مريضاً بالسفلس أو أن هذا القول هذيان . إذ ليس هذا هذياناً .

لقد كان القرن التاسع عشر عصر الإيمان بالوارثة ، وهى القدر الذى يعين لنا حظنا فى الحياة بما ورثنا من كفايات من آبائنا . ومع أن القرن العشرين قد نقض كثيراً من هذا الرأى ، وأدحض بعض الأركان لهذا القدر ، فإن الوراثة لا تزال تحتل جزءاً كبيراً من التفكير البيولوجى . وكلنا يثق هذه الأيام بقيمة الوسط فى التغير والتطوير ولكن مع اختيار السلالات التى تعينت لها صفات واستقرت فيها خصائص بحيث نعود فنستغل هذه الصفات والخصائص فى الوراثة .

وقد ظهرت « اليوجنية » أى علم ترقية السلالات البشرية بناء على الإيمان بالوراثة ، وهى إلى الآن يوجنية سلبية . بمعنى أن الأمم المتمدنة تعمد إلى تعقيم الناقصين والبله حتى لا يتناسلوا . وقد عمد هتلر إلى شىء من اليوجنية الإيجابية بتشجيع المتفوقين على التناسل وخصهم بميزات لم يكن يحصل عليها سائر أفراد الشعب . وذلك أيام النازية . وهذا كله من وحى نيتشه كما هو من التعاليم التى فشت عقب نظرية التطور .

وقد كان لكتاب البيولوجى ڤيسمان « الجرثومة المنوية » أكبر الأثر فى الإسراف فى الإيمان بالوراثة ، وقد أفسد هذا الرجل ذهنى بل أخلاقى

مدة طويلة .

ولكن رويداً رويداً تغيرت النبرة فى التطور . فبدلا من القول بتنازع البقاء فى الطبيعة أثبت كوربتكين أن التعاون ، وليس التنازع هو شريعة الغابة . ثم انتهينا فى السنوات العشر الأخيرة إلى التسليم بأن الوسط يغير الحى ، نباتاً أو حيواناً أو إنساناً ، وأن هذا التغير الوسطى يعود فيثبت بالوراثة .

فى ضوء التطورات وفى تجارب الوسط لا نستطيع أن نسلم بمذهب نيتشه بأن نكون قساة لا نرحم . فالتطور يصيح بالتعاون ، والوسط يستطيع أن يغير ، ونحن البشر بما وصلنا إليه من معارف بيولوجية نستطيع أن نزيد سرعة التطور بالتنظيم الاجتماعى الذى يحقق الارتقاء البيولوجى .

* * *

كثيراً ما أعود إلى قراءة نيتشه لا لأننى مقتنع بمنطقه ، ولكن لأنى أجد سحراً على الدوام فى تعبيره وأحياناً فى تفكيره . انظر إلى ما يقوله عن الرحمة :

« إن الرحمة تناقض الشهوات الحية المنعشة التى ترفع نشاط البشر وتزيد إحساسهم القوة ، إذ هى تكرب وتغم . ونحن نفقد حيوينا حين نمارس الرحمة . وما نفقده من قوة وحيوية ، بسبب الألم مثلا ، يزداد ويتضاعف بالرحمة . حتى ليصير الألم معدياً بالرحمة . وقد يؤدى فى بعض الظروف إلى أن نفقد الحياة ذاتها ، وإذا شئت برهاناً على ذلك فاذكر هذا النصرانى الذى انتهت به رحمته لأبناء البشر إلى الصليب !

« وأيضاً تفسد الرحمة شريعة التطور التى تقول ببقاء الأصلح . وهى ، أى الرحمة ، تستبقى ما كان يجب أن يموت ، كما تعمل لمصلحة

الذين حكمت عليهم الطبيعة . وهى تضفى على الحياة لوناً قاتماً بعدد الناقصين الفاسدين الذين تعولهم . وهى تضاعف التعس كما تحافظ عليه. وهى الأداة الأولى لترويج الانحطاط . وهى تؤدى إلى الفناء ، إلى إنكار الغرائز التى تنبنى عليها الحياة . . » !

وليس شك أن فى هذا الكلام هذياناً كثيراً ؛ ولكنه كان هذياناً يسحرنى لأول وقعه فى نفسى ؛ وأنا خام أخضر فى سن العشرين . كان يسحر وينبه ، إذ كان يبعث على المراجعة والفحص عن الأخلاق العامة والتقاليد الموروثة التى كنا نعيش فيها مستسلمين غير متسائلين أو مستطلعين .

أو انظر على ما يقوله عن الحياة :

« إنما الحياة فى صميمها امتلاك واحتياز وإيذاء ، ومحق للضعفاء والعاجزين عن التلاؤم والتكيف . وهدف الحى هو إبراز شخصه والتمكن من تأدية وظائفه غير معارض أو معطل » .

وهذه المقتبسات التالية هى صورة المجتمع والحضارة كما يراهما نيتشه إذ يقول :

« إن نظام الطبقات هو السنة السائدة للطبيعة . وهى سنة لا تستطيع أية قوة بشرية أن تتغلب عليها فى كل مجتمع صحيح توجد ثلاث طبقات لكل منها أخلاقه وعمله وما يفهمه من معانى الكمال والسيادة . وتتألف الطبقة الأولى من أولئك الذين يمتازون بالتفوق الذهنى على سواد الأمة . وتتألف الثانية من أولئك الذين يمتازون بالتفوق العضلى ، أما الطبقة الثالثة فمن المتوسطين .

« وللطبقة الأولى ميزة التمثيل للجمال والسعادة والطيبة على الأرض . وأفراد هذه الطبقة يقبلون هذا العالم كما هو ويستخدمونه بما فى مستطاعهم ،

وهم يجدون سعادتهم فى تلك الشئون التى تدمر من هم دونهم فى الصعوبات والقسوة نحو أنفسهم ونحو غيرهم من الجهد ولذتهم فى حكم أنفسهم . والنسك عندهم طبيعة وضرورة وغريزة . وهم يتحملون الواجبات الشاقة كما لو كانت امتيازات يمتازون بها . وهم يرتاضون بتحمل الأعباء التى تسحق غيرهم إلى الموت . وهم زبدة الناس وأكثرهم حبًّا وفرحاً ، وهم يحكمون عفو طبيعتهم . كما أنهم ليسوا أحراراً فى أن ينتظموا فى الصف الثانى .

« أما الطبقة الثانية فتتألف من الأوصياء وحفظة النظام والأمن ، رجال الحرب والأشراف والملك ، وفوق هؤلاء القضاء حماة القوانين . وهم أسمى طرازاً من المقاتلين الحربيين ، فإنهم ينفذون أوامر الطبقة الأولى ويريحونها من الأعمال اليدوية أو الخشنة التى يحتاج إليها الحكم .

« وفى أسفل توجد الطبقة الثالثة من أفراد الصناعات اليدوية والتجارة ومعظم الفنون والعلوم . ومن سنن الطبيعة أن يكون كل هؤلاء من المرافق العامة فى الأمة أو دواليب تدور ووظائف تؤدى . والسعادة الوحيدة التى يستطيعها أفراد هذه الطبقة هى قدرتهم على أن يكونوا آلات ذكية ، لأن الرجل المتوسط يفهم من السعادة أنها حال التوسط . والتخصص أو التفوق فى تدريب معين هو غريزتهم .

« ولا يليق بالذهن الضيق أن يعارض حال التوسط هذه ، لأن هؤلاء المتوسطين ضرورة للمجتمع البشرى . إذ يتيحون للرجل الفذ أن يوجد .

« منْ مِنَ الناس أكرهه أكثر من غيره ؟

« أكره ذلك الاشتراكى الذى يهدم الغرائز السليمة عند العامل بأن ينزع منه إحساس القناعة بمكانه ويجعله حسوداً ويعلمه الانتقام . . .

« أجل يجب أن نعرف أنه ليس هناك ظلم فى تفاوت الحقوق » .

* * *

مات نيتشه فى عام ١٩٠٠ . أى دفن فى هذه السنة . ولكن الواقع أنه كان ميتاً منذ حوالى عام ١٨٨٥ للمرض الذى أشرنا إليه . وهو مرض لم يقعد جسمه فقط بل أمات ذهنه . ولم يكد العالم المتمدن يحس بوجوده إلا بعد وفاته . وكان الإحساس عندئذ حاداً . فمنذ عام ١٩٠٠ إلى عام ١٩٥٠ ونيتشه يعلو على جميع المفكرين الأوربيين ، بل يمثل مشكلة الضمير الأوربى مشكلة السياسة الأوربية ، سياسة التنازع إزاء سياسة التعاون.

وهو لو كان فيلسوفاً فقط ، يكتب بالرطانة الفلسفية التى لا يفهمها غير المثقفين ، لما كان خطره كبيراً . لكنه كان شاعراً يتغنى ويترنم ولذلك كان ولا يزال يجذب إليه الشباب الذين يقودهم إلى الضلال أو يهديهم إلى الرشاد ، فهو غواية وفتنة كما هو نور ومعرفة . هو جنون وعقل .

وأكاد أقول عندما أجد شاباً يقرأ نيتشه : حذار ، لا تقدم . إنك على طرف هاوية . وقد تنزلق فتتردى ، ولكن اقرأ دستوفسكى وغاندى وشيفتزر وبرناردشو ، فهم الترياق الذى تحتاج إليه إذا قرأت نيتشه . لا . بل يجب أن تقرأ نيتشه ، لأن أقل ما فيه أنه يحثك على التساؤل والاستطلاع ، ويحول بينك وبين التسليم المطلق للعرف والعادة . إذ هو قوة تحريرية عظمى ، ولكنه أيضاً يحملك تبعات سامية بشأن المستقبل البشرى على هذه الأرض ويكسبك العملية الفلكية التكهنية فى الفلسفة وعندئذ ستعرف أن القيمة العظمى فى الفلسفة ليست نظاماً منطقياً يقول بأن اثنين واثنين يساويان أربعة ، وإنما هى فى تعيين القيم والأوزان الأخلاقية التى تخدم رقى الإنسان ، وفى التكهن بالمستقبل البشرى والاستعداد له . وميزة نيتشه هنا أنه استطاع أن يقنع أوربا بأن الأخلاق يجب أن تنبنى على أساس بيولوجى بشرى .

كتب نيتشه حوالى عام ١٨٨٠ إلى أخته يقول :

« عديني أنني عندما أموت لن يقف حول نعشي سوى أصدقائي ولن يكون حولي أحد من الغوغاء المتسائلين . واعملي على ألا يلقى قسيس على قبري أكاذيب وأنا عاجز عن حماية نفسي ، وودعيني إلى قبري وأنا وثني شريف » .

ومات فى عام ١٩٠٠ مغموراً لم ترثه جريدة ولم تذكره جامعة . ولكنه بعث بعد موته ، إذ أصبح الضجة الكبرى والصيحة العالية فى جميع الأوساط المثقفة ، ولا يزال دويه عالياً واسمه رمزاً للتساؤل .

وفى نفسى له حب وأسف وإقبال وصدود .